



جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

قسم الحضارة الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية



# مُحاضرات في الإعجاز القرآني

مطبوعة مُوجَّهة إلى طلبة السنة الثالثة؛ لغة عربيّة ودراسات قرآنيّة

(السُداسيُّ الخامس)

إعداد: د. العيد حديق؛ أستاذ محاضر أ

كلية العلوم الإسلامية

جامعة الوادي / الجزائر

الموسم الجامعي: 2024/2023

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### بين يدي المحاضرات

الحمدُ لله الَّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ ليُظهره على الدِّينِ كُلِّهِ وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا مزيدًا، أمَّا بعدُ:

فهذه مُحاضراتٌ في مقياس: الإعجاز القرآني؛ تصبُّ في مجرى تميم طالب اللُّغة العربيَّة والدراسات القرآنيَّة معارفه في أصول التفسير ومناهج المفسِّرين والبلاغة القرآنيَّة، وذلك بالوقوف على تأصيل مفهوم الإعجاز القرآني، والإحاطة ببعض مسائله، والوقوف على محطَّاته التَّاريخيَّة، من خلال جهود أعلامه على مرِّ العصور.

وقد آثرنا - مُوافقةً للمقرَّر الوزاريِّ - أن نجعلَ هذه المحاضرات في أربعة محاور؛ هي:

- الإعجاز القرآنيُّ؛ المصطلح والتَّاريخ

- الإعجاز عند المتكلمين (المعتزلة والأشاعرة)

- الإعجاز عند أهل السُّنة

- الإعجاز عند المحدثين

وفي كُلِّ محورٍ من هذه المحاور الأربعة، ثلاث محاضرات، سأبثُّ تفاصيلها في فهرس المطبوعة. أسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يكون في هذا العملُ تقريبٌ لمادَّة المقياس لأذهان طلبتنا الكرام، وشحدٌ لهممهم للاستزادة من الاطِّلاع على مباحث إعجاز القرآن في مصادرها الأصيلَّة، والله المستعانُ وعليه التُّكلان.

## فهرسُ الموضوعات

- 2 ..... بين يدي المحاضرات
- 3 ..... فهرس الموضوعات
- \* المحور الأول: الإعجاز القرآني؛ المصطلح والتاريخ** 4 .....
- 5 ..... المحاضرة الأولى: إعجاز القرآن؛ المفهوم والتأصيل
- 13 ..... المحاضرة الثانية: شيءٌ من تاريخ إعجاز القرآن
- 18..... المحاضرة الثالثة: مسائل متعلّقة بالإعجاز
- \* المحور الثاني: إعجاز القرآن عند المتكلمين (المعتزلة والأشاعرة)** 26.....
- 27..... المحاضرة الرابعة: إعجاز القرآن عند الجاحظ (ت:255هـ) والرّمائيّ (ت:384هـ) رحمهما الله
- 37..... المحاضرة الخامسة: إعجاز القرآن عند الباقلانيّ (ت:403هـ) والجرجانيّ (ت:471هـ) رحمهما الله
- 47..... المحاضرة السادسة: إعجاز القرآن عند الرّمحشريّ رحمه الله (ت:538هـ)
- \* المحور الثالث: إعجاز القرآن عند أهل السنة** 54.....
- 55..... المحاضرة السابعة: إعجاز القرآن عند ابنِ قُتَيْبَةَ رحمه الله (ت:276هـ)
- 63..... المحاضرة الثامنة: إعجاز القرآن عند الحطّابيّ رحمه الله (ت:388هـ)
- 71..... المحاضرة التاسعة: إعجاز القرآن عند ابنِ تيمية رحمه الله (ت:728هـ)
- \* المحور الرابع: إعجاز القرآن عند المُحدّثين** 82.....
- 83..... المحاضرة العاشرة: إعجاز القرآن عند الرّافعيّ رحمه الله (ت:1356هـ=1937م)
- 92..... المحاضرة الحادية عشر: إعجاز القرآن عند عبد الله دراز رحمه الله (ت:1377هـ=1985م)
- ..... المحاضرة الثانية عشر: إعجاز القرآن عند عائشة عبد الرحمن رحمها الله (ت:1419هـ=1998م)
- 101 ..... ثبت المصادر والمراجع

## المحور الأوّل:

# الإعجاز القرآني؛ المصطلح والتاريخ

وفيه ثلاثُ مُحاضراتٍ:

- المحاضرة الأولى: إعجازُ القرآن؛ المفهومُ والتّأصيل
- المحاضرة الثانية: شيءٌ من تاريخ إعجاز القرآن
- المحاضرة الثالثة: مسائلٌ متعلّقةٌ بالإعجاز

## المحاضرة الأولى: إعجاز القرآن؛ المفهوم والتأصيل

ويتم فيها - بحول الله وقوته - تناوُل المسائل الأربع الآتية: تعريف إعجاز القرآن لغةً واصطلاحًا، والمعجزة وشروطها، والمصطلحات المتعلقة بالمعجزة، والتحدّي وما يتعلّق به. وهذا إجمال تفصيله كالاتي:

### المسألة الأولى: تعريف (إعجاز القرآن) لغةً واصطلاحًا

- لغةً: لإدراك معنى (الإعجاز) على وجهه، لا بدّ من الرجوع به إلى مادّته اللغويّة، وملاحظة الرّابط بين هذه المعاني الواردة في أصل اللّغة، وبين المعنى الاصطلاحيّ.

فقد ذكر الرّازي (ت:666هـ) في (مختار الصحاح) في مادّة (ع ج ز) أنّ: «العجز، بضمّ الجيم: مؤخّر الشيء، يذكر ويؤنّث [...] والعجز الضّعف، وبابه ضرب (معجزًا) بفتح الجيم وكسرها، وفي الحديث: «لا تُلثوا بدار معجزة» أي: لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتّعيّش [...] و(أعجزه) الشيء، فاته [...] و(المعجزة) واحدة معجزات الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام»<sup>1</sup>.

كما ورد في (أساس البلاغة) للرّمحشيريّ (ت:538هـ) في المادّة ذاتها: «وطلبته فأعجز وعاجز، إذا سبق فلم يُدرِك»<sup>2</sup>.

وعلى هذا النحو جاءت مادّة (ع ج ز) في بقيّة المعاجم، ونحن إذا ما تأملنا هذه التّعريف، وجدنا أنّها ترجع كلّها إلى معنيين اثنين: أحدهما الضّعف، والآخر التّأخّر، لذلك لمّ شملها ابنُ فارس (ت:395هـ). على عاداته في ردّ المشتقات إلى أصولها. فقال: «(ع ج ز) العين والجيم والرّاي، أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على الضّعف، والآخر على مؤخّر الشيء»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الرّازي، مختار الصحاح، ص176.

<sup>2</sup> الرّمحشيريّ، أساس البلاغة، ج1، ص635.

<sup>3</sup> ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ج4، ص232.

وهذا مناسب أتم المناسبة لما نحن بصدد من بيان إعجاز القرآن؛ إذ إنَّ القوم (العرب) لما تُخَدُّوا إلى معارضة القرآن، إمَّا كاعوا وجبنوا، فبان ضعفهم، أو أتمَّ طلبوا ذلك وحاولوه، فأعياهم وفاتهم فصاروا بمنزلة المتأخِّرين عنه، وكلا الأمرين حاصل وصحيح، وفي التعريف الإصطلاحيّ زيادة بيان وتوضيح<sup>1</sup>.

- اصطلاحًا: اختلفت عبارات أهل العلم في ضبط مصطلح (الإعجاز):

- فوجد المناويّ (ت:1031هـ) - مثلاً - يقول: «الإعجاز في الكلام، تأديته بطريق أبلغ من كلّ ما عداه من الطّرق»<sup>2</sup>. ولعلنا نلاحظ في هذا التعريف تشابها كبيرا مع تعريف الرّمانيّ (ت:386هـ) للبلاغة، إذ يقول: «البلاغة إيصال المعنى إلى القلب، في أحسن صورة من اللفظ»<sup>3</sup>. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلُّ على قيمة الوجه البلاغيّ في إعجاز القرآن، إذ أنّ أهل الشّأن على وفاق أنّه مراد.

- ولذلك عرّفه الكفويّ (ت:1094هـ) كذلك في (الكليّات) بقوله: «وإعجاز القرآن، ارتقاؤه في البلاغة

إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرّأي الصّحيح»<sup>4</sup>.

- إلّا أنّ تعريف الزّرقانيّ رحمه الله (ت:1367هـ=1947م) أدقُّ في ضبط المصطلح، وأشمل في مدلوله إذ

يقول: «إعجاز القرآن، مركّب إضافيّ، معناه بحسب أصل اللّغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلّق بالفعل محذوف للعلم به، والتّقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحدّاهم به»<sup>5</sup>. فلا حرج من اعتماده والتّعويل عليه.

### المسألة الثّانية: المعجزة وشروطها

- المعجزة لغةً: اسمُ فاعلٍ من (أعجزَ وعَجَزَ)، والهَاءُ فيها إمَّا للمبالغة؛ كالتّي في كلمات: علامة

ونسّابة، يقال: رجلٌ علامةٌ ونسّابةٌ؛ إذا كان كثير العلم، شديد المعرفة بالأنساب. وإمَّا للنقل؛ أي نقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية؛ ككلمات الحقيقة والنّطيحة والذّبيحة، فإنّها في الأصل أوصاف هي الحقيق والنّطيح والذّبيح، فلمّا دخلت عليها التّاء نقلتها من كونها وصفاً إلى كونها اسماً؛ فنقول مثلاً: هذا اللفظ حقيقيٌّ، وهذا الكبشُ ذبيحةٌ.

<sup>1</sup> يُنظر: العيد حذيق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، ص14-15.

<sup>2</sup> المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص75.

<sup>3</sup> الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص75.

<sup>4</sup> أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص215.

<sup>5</sup> الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص259.

وعلى ذلك، فليست التاء في (معجزة) تاء تأنيث؛ لأنّ تاء التأنيث يُؤتى بها للتفريق بين المذكّر والمؤنث، وكلمة (المعجزة) ليست كذلك؛ إذ بإمكاننا أن نقول: (القرآن كلام الله المعجز)، كما يسوغ أن نقول: (القرآن هو معجزة النبي ﷺ)<sup>1</sup>.

- **وأما في لسان الشرع:** فقد تعددت عبارات أهل العلم في تعريفها، لكنّ غالب كلامهم يدور على معنى مُتقاربٍ هو: أنّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، سالمٌ من المعارضة، يُجريه الله ﷻ على يد نبيٍّ من أنبيائه، تصديقاً له في دعوى النبوة<sup>2</sup>.

- قال القرطبي رحمه الله (ت:671هـ): «المُعْجِزَةُ وَاحِدَةٌ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَسُمِّيَتْ مُعْجِزَةً لِأَنَّ الْبَشَرَ يَعْجِزُونَ عَنِ الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهَا»<sup>3</sup>.

- وقد حدّثها السيوطي رحمه الله (ت:911هـ) بقوله: «اعلم أنّ المُعْجِزَةَ: أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، مَقْرُونٌ بِالتَّحْدِي، سالمٌ عن المُعَارِضَةِ»<sup>4</sup>. إلّا أنّه نُوزِعَ في اشتراطِ التَّحْدِي؛ فمن المعجزات ما لا تحدي فيه؛ لأنّه أساساً ليس مُوجَّهًا للكفار المعاندين، بل للأتباع المؤمنين؛ كتكثير الطعام له ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ<sup>5</sup>.

وهذا ما يقودنا إلى الكلام عن شروط المعجزة، فنقول:

- **شروط المعجزة:** قال القرطبي رحمه الله (ت:671هـ): «وَشَرَايِطُهَا خَمْسَةٌ فَإِنْ اخْتَلَّتْ مِنْهَا شَرْطٌ؛ لَا تَكُونُ مُعْجِزَةً»<sup>6</sup>. وهذه الشروط الخمسة إجمالاً هي: أن تكون خارقة للعادة، وأن تكون ممّا لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وسلامتها من المعارضة، وأن تقع على وفق دعوى النبي المُتَّحِدِي بِهَا، وتأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة. وتفصيلها كالاتي:

1- أن تكون خارقة للعادة: ومعنى خرقها للعادة؛ أن تكون مخالفةً للسُنن الكونية التي جعلها الله ﷻ قوانين تحكم هذا الكون؛ كعدم إحراق النار، أو خروج كائن حيٍّ من الحجر، أو أن تنقلب عصا حية

<sup>1</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، 19-20. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص18.

<sup>2</sup> يُنظر: صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص18.

<sup>3</sup> القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص69.

<sup>4</sup> السيوطي، الإتيان، ج4، ص3.

<sup>5</sup> يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص20-21.

<sup>6</sup> القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص69.

تسعى<sup>1</sup>. وإِذَا وَجَبَ اشْتِرَاطُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ الْمُدْعَى لِلرَّسَالَةِ: آتِي مَجِيءُ اللَّيْلِ بَعْدَ النَّهَارِ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِهَا، لَمْ يَكُنْ فِيهَا ادْعَى مُعْجِزَةً، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِهَاتَمَ تَفَعَّلَ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ دَعْوَاهُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي حِينِ دَعْوَاهُ<sup>2</sup>.

2- أَنْ تَكُونَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ويتضمن ذلك ابتداءً أن تكون من فعل الله حَمَلًا؛ إذ هو سبحانه الذي يُحَدِّدُ نوعها ومكانها وزمانها، وهو الذي يُجْرِي على يد نبيه ما يشاء ويختار من الآيات، والنبِيُّ لا اختيار له، ولا قُدْرَة له على إجرائها. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد:38]<sup>3</sup>.

ثمَّ أَنْ تَكُونَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ عَجَلًا؛ حَتَّى يَثْبِتَ عَجْزَ الْبَشَرِ عَنْهُ؛ فَلَوْ ادَّعَى مُدْعٍ أَنْ مُعْجِزَتَهُ أَنَّهُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا ادَّعَاهُ مُعْجِزَةً، وَلَا كَانَ دَالًّا عَلَى صِدْقِهِ؛ لِقُدْرَةِ الْخَلْقِ عَلَى مِثْلِهِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمُعْجِزَاتُ كَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَمَا شَاكَلَهَا مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ<sup>4</sup>.

3- سلامتها من المعارضة: أي أَنَّ الْمُتَحَدِّينَ بِهَا؛ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَقْضَهَا، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا، فَلَوْ اسْتَطَاعَ الْخَصْمُ الْمُتَحَدِّي أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ؛ بَطَلَتْ حُجَّتُهُ، وَلَمْ يُسَلِّمْ لَهُ ادْعَاؤُهُ أَنْ هَذِهِ الْخَارِقَةُ أَوْ هَذَا الْأَمْرُ مُعْجِزَةٌ؛ أَي دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِ وَأَمَارَةٌ عَلَى بَعْتِهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَجَلًا.

4- أَنْ تَقَعَ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْمُتَحَدِّي بِهَا الْمُسْتَشْهَدِ بِكُونِهَا مُعْجِزَةً لَهُ: فَلَوْ وَقَعَتِ الْمَعْجِزَةُ عَلَى وَجْهِ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي عَيْنَهُ الرَّسُولُ لَمْ تَكُنْ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ؛ كَأَنْ يَقُولَ: مُعْجِزَتِي إِحْيَاءُ الْمَوْتَى، فَيَكُونُ الْحَاصِلُ نَطْقُ الْحَجَرِ مِثْلًا، لَمْ تَكُنْ هَذِهِ مُعْجِزَةً. أَوْ أَنْ يَقُولَ: آيَةُ نُبُوَّتِي أَنْ تَنْطِقَ يَدَيَّ أَوْ هَذِهِ الدَّابَّةُ، فَنَطَقَتْ يَدُهُ أَوْ الدَّابَّةُ بِأَنْ قَالَتْ: كَذَبَ وَلَيْسَ هُوَ نَبِيٌّ، فَإِنَّ هَذَا الْوَاقِعَ دَالٌّ عَلَى كَذِبِ الْمُدْعَى لِلرَّسَالَةِ، لِأَنَّ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ لَمْ يَقَعْ عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُ<sup>6</sup>، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا يُرَوَى فِي أَخْبَارِ مُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ مِنْ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُجَارِيَ مَا كَانَ يَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ، فَكَانَ إِذَا بَصَقَ فِي بَعْرِ جَفَّ مَآوِهَا، وَإِذَا سُقِيَ بِوَضُوئِهِ أَرْضٌ انْقَطَعَتْ

<sup>1</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص21.

<sup>2</sup> يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70.

<sup>3</sup> يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص19.

<sup>4</sup> يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70.

<sup>5</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص20.

<sup>6</sup> يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص22.

نباتها، وإذا مسح على صبي ليباركه لثغ أو قرع<sup>1</sup>، وهذا الذي يُطلق عليه العلماء (إهانة)، فيما إذا حصلت خوارق العادات على أيدي الصالحين من عباده فإنها تُسمى (كرامة)<sup>2</sup>.

5- تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة: أي أن تقع المعجزة بعد ادعاء النبوة؛ لأنها بمثابة الشاهد، ولا يقوم الشاهد إلا بعد قيام الدعوى، أما إذا تقدمت على دعوى الرسالة، فتسمى: (إرهاصًا)؛ والإرهاص: الأمور التي تتقدم على الرسالة وتمهد له، ككلام عيسى عليه السلام وهو في المهدي، أو سلام الحجر على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة قبل البعثة<sup>3</sup>.

### المسألة الثالثة: مصطلحات متعلقة بالمعجزة

مما ينبغي أن يُعلمَ ههنا، أن مصطلح (المعجزة) ليس له ورودٌ في نصوص الكتاب والسنة، بل هو مصطلحٌ متأخرٌ ظهرت بداياته في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث مع حركة التدوين، ولكن وردت كلمات أخرى مُقاربةٌ لها في معناها، ودلالاتها على ما يقدمه الرسل لأقوامهم من الحجج والبيّنات على أنهم رسل الله حقًا، المبلغون عنه رسالاته صدقًا، وهذه الكلمات هي: الآية والبيّنة والبصيرة والسُلطان والبرهان.

1- الآية: كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: 101]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ فَآلَقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ﴾ [الأعراف: 106-108].

2- البيّنة: والبيّنة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: 73].

3- البصيرة: وجمعها بصائر، وهي الشّيء الواضح الظاهر؛ الذي يدركه القلب، وتُبصره العين. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 104].

4- السُلطان: كما يأتي التعبير عن المعجزة أحيانًا بالسُلطان، وهو الأمر القوي والبرهان الساطع الذي يتمكن من العقول ويهيمن على القلوب؛ فيسوقها منقادًا إلى منطقه. قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10].

<sup>1</sup> يُنظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج4، ص22-23.

<sup>2</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص20. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص19.

<sup>3</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص22. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص20.

5- البرهان: يقول تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:32]. والبرهان بيان للحجة وهو أوكد الأدلة ويقتضي الصدق لا محالة<sup>1</sup>.

### المسألة الرابعة: التَّحْدِي وما يتعلق به

- معنى التَّحْدِي: أن يفعل المتَّحِدِي فعلاً، ثم يُطالب خصمه أن يبذل غاية وُسعه في معارضته والإتيان بمثله، وهو على ثقة أنه غير قادر على مثل هذا الفعل طالبا بذلك إثبات عجزه وضعفه عن مجاراته وغلبته.  
- وقد أشرنا - من قبل -، أن اشتراطه في كُلِّ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرُ لَازِمٍ، لَوْجُودِ مُعْجَزَاتٍ غَيْرِ مُتَوَجِّهَةٍ إِلَى الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ أَسَاسًا؛ إذ المُعْجَزَاتُ عَلَى ذَلِكَ قَسَمَانِ:

القسم الأول: مقرون بالتَّحْدِي؛ وهذا يكون مُوجَّهًا لِلْكَفَّارِ الْمَكْذِبِينَ، ليكون شاهدًا لصدقِ النبي الذي جاء به، وذلك كعنافة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى لعيسى، وإنزال القرآن على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والآخر: مُعْجَزَاتٌ غَيْرُ مَقْرُونَةٍ بِالتَّحْدِي؛ وهذه تكون مُوجَّهَةً لِتَبَاعِ النَّبِيِّ الْمُؤْمِنِينَ، وليسَ الْمُؤْمِنُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَحْدِيٍّ، وذلك مثل انفجار العيون الاثني عشر لموسى عليه السلام، وإنزال المائدة لعيسى عليه السلام، وتكثير الطَّعَامِ لِنَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم<sup>2</sup>.

- إذا عَلِمَ هَذَا؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي جَاءَ مَقْرُونًا بِالتَّحْدِي؛ ذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَمَّا جَاءَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِالْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، كَذَّبُوهُ فِي هَذَا، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:31].

فتحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله في آيات كثيرة وأزمنة مختلفة، ولكن أشهر آيات التَّحْدِي أربعة، وجماهير أهل العلم على أنها مُرْتَبَةٌ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاحِلٍ كَالآتِي:  
أولاً: أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثل القرآن دون أن يُحدد لهم قدرًا معيَّنًا، وذلك في سورة الطور، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:34].

<sup>1</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 17-18. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص 21-23.

<sup>2</sup> يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص 20-21.

ثانياً: فلما عجزوا أن يأتوا بمثله، تنزل معهم في التحدي، فطالبهم بعشر سورٍ مثله فقط، وذلك في سورة هود، قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود:13-14].

ثالثاً: فلما عجزوا عن هذه كذلك؛ أرخى لهم العنان مرةً أخرى، وخفف عليهم المؤنة، واكتفى منهم هذه المرة بسورة واحدة، وذلك في سورة يونس، قال ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38].

رابعاً: فلما لم يُجيزوا جواباً، ولم يأتوا بشيءٍ مما طالبهم به؛ أعاد تحديهم للمرة الأخيرة أن يأتوا بسورة واحدة تُشبه القرآن، ولو بوجهٍ من الوجوه، وذلك في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:23-24].<sup>1</sup>

يقول الراجعي رحمه الله (ت:1356هـ=1937م) في هذا الصدد: «أما الطريقة التي سلكها إلى ذلك، فهي أن التحدي كان مقصوداً على طلب المعارضة بمثل القرآن، ثم بعشر سورٍ مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسلوب، وهم أهل الله ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور، ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفج الرماد الهامد، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:23-24]، فقطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله، ولا يقوها عربي في العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخر الأبد فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا»<sup>2</sup>.

- ومما يلاحظ من آيات التحدي الأربعة، أمورٌ أهمها:

أ- يسبق آيات التحدي تشكيك الكافرين في مصدرية القرآن، وإتهام النبي ﷺ بافتراءه، فتأتي آية التحدي لإبطال هذا الزعم وتفنيد هذا الافتراء.

<sup>1</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، 31-32.

<sup>2</sup> الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص118.

ب- أن المراحل الثلاثة الأولى من التحدّي كانت في مكة، لأنّ سُورَ الطُّورِ وهود ويونس مكّيّة، فيما كانت المرحلة الرّابعة في المدينة، إذ البقرة مدنيّة، وهذا دالٌّ على تأكّد عجز العرب عن المعارضة على تناول المِدَّة وفسح المهلة.

ج- الآية الرابعة (من سورة البقرة) مُختلفة عن الثلاثة الأولى من حيث السياق ومن حيث الأسلوب؛ أمّا من حيث السياق فإنّ المقصود بالتحديّ فيها الناس جميعًا وليس العرب فقط، بدليل أنه قبلها مباشرةً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22]. وأمّا من حيث الأسلوب؛ فإنّ آية البقرة فيها زيادة (من) في قوله تعالى: (فاتوا بسورة من مثله) فيما خلت منها الآيات الأخرى (فلياتوا بحديث مثله)، وهذا يُشيرُ إلى أنّ العرب تُحدّوا في الآيات الثلاثة الأولى إلى أن يأتوا بمثل القرآن بيانًا وبلاغًا وفصاحة؛ لأنّ هذه الأمور هي التي كانت بضاعتهم، فيما كانت آية البقرة تحديًا للناس أجمعين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بأيّ وجهٍ من الوجوه، وهذا يدلُّ على أن أوجه إعجازه كثيرةٌ وليست قاصرة على الوجه اللغويّ البياني<sup>1</sup>. والله أعلم.

<sup>1</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص32-33. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص56 وما بعدها.

## المحاضرة الثانية: شيء من تاريخ إعجاز القرآن

الحق أن مادة هذه المحاضرة هي تلخيص لمضامين محاضرات السُداسيِّ جميعها؛ لأنها بمثابة النظرة العجلى على المسيرة التاريخية لإعجاز القرآن الكريم، فيما ستكون سائر المحاضرات كالوقوف عند المحطات الكبرى لهذه المسيرة، وتسجيل ما هنالك من ملاحظات، وتحقيقاً لهذا الغرض؛ رأيتُ أن أجعلها في مسألتين اثنتين: الأولى في تاريخ مصطلح إعجاز القرآن، والأخرى في تاريخ التأليف في إعجاز القرآن، وإن كان الكلام بينهما متلازماً، فإننا سنحاول التمييز بينهما، وسنمهّد لذلك بالتمهيد الآتي:

### تمهيد: إعجاز القرآن غير مقصود لذاته

إذا تقرّر أنّ إعجاز القرآن هو: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بمثله ما تحدّاهم به؛ فقد علم أيضاً أنّ تعجزهم عن ذلك ليس لمجرد التعجيز، إذ لو كان ذلك، لكان ضرباً من العبث، وإتّما المراد لازم ذلك، وهو إثبات أنّ هذا القرآن من عند الله حقّاً، ومن ثمّ فإنّ البشر الذي جاء به رسول الله صدقاً، وهذه هي مسألة دلائل النبوة، أي: براهين صدق النبي ﷺ في دعواه أنّه مرسل من ربه ﷻ.

وقد ذكر الزركشي رحمه الله (ت: 794هـ) بهذا الصدد أنّ علم الإعجاز: «علم جليل، عظيم القدر، لأنّ نبوة النبي ﷺ مُعْجَزُهَا الْبَاقِيَةُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يُوجِبُ الْإِهْتِمَامَ بِمَعْرِفَةِ الْإِعْجَازِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، فَلَوْلَا أَنَّ سَمَاعَهُ إِيَّاهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَقِفْ أَمْرُهُ عَلَى سَمَاعِهِ، وَلَا تَكُونُ حُجَّةً إِلَّا وَهِيَ مُعْجَزَةٌ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 50-51]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْكِتَابَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ، وَأَنَّهُ كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ، قَائِمٌ مَقَامَ مُعْجَزَاتٍ غَيْرِهِ وَآيَاتٍ سِوَاهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>1</sup>.

فقد صرح رحمه الله بأنّ موجب الاحتفاء بالإعجاز، تعلّقه بنبوة النبي ﷺ، ولعلّ الزركشي رحمه الله استفاد هذا من الباقلاني رحمه الله (ت: 403هـ) القائل: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أنّ نبوة نبيّنا بُنيت على هذه المعجزة، وإن كان أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أنّ تلك المعجزات قامت في أوقات

<sup>1</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص90-91.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة [...] فأما دلالة القرآن، فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجّة بها في أوّل وقت وُرودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد<sup>1</sup>. كما يشير الزرقاني رحمه الله (ت: 1367هـ=1947م) إلى أنّ التعجيز الواقع بالتّحدّي بالقرآن الكريم، ليس الغرض منه نفس التعجيز، وإتّما ما ينجرّ عنه، وهو صدق النّبي ﷺ، يقول رحمه الله: «ولكنّ التعجيز المذكور، ليس مقصودا لذاته، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أنّ هذا الكتاب حقّ، وأنّ الرّسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشّأن في كلّ معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن لازمه، وهو دلالتها على أنّهم صادقون فيما يبلّغون عن الله ﷻ»<sup>2</sup>.

### المسألة الأولى: تاريخ مصطلح إعجاز القرآن

من المتقرّر الآن أنّ (إعجاز القرآن) بوصفه مصطلحاً متميّزاً؛ لم يكن معروفاً في بيئة المتكلّمين، إلّا جزءاً من قضية النّبوات؛ والتي كانوا يُسمّونها: دلائل النّبوة، وحجج النّبوة، وآيات النّبوة. ولم يُذكر هذا المصطلح في القرآن ولا في حديث النبي ﷺ ولا في كلام الصحابة والتابعين، وكانت تستعمل كلمة (آية) مكان (المعجزة) و(الإعجاز)، وقد نشأ هذا المصطلح في نهاية القرن الثالث في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ والأهواء<sup>3</sup>؛ إذ بدأت الأفكار الجديدة تتسلل إلى عقول المسلمين، على حين بدأ الإسلام ينشر لواءه على البلدان المفتوحة، فأقبل الحاقدون من المغلوبين على الدين الجديد؛ يدرسون وينظرون فيه بعقولهم القديمة ونفوسهم السابقة، وفي ضوء من تراثهم الدينيّ والفلسفي<sup>4</sup>، كما أشار إلى ذلك ابن قُتيبة رحمه الله (ت: 276هـ) بقوله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) بأفهام كليله، وأبصار عليّلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثمّ قضوا

<sup>1</sup> الباقلائي، إعجاز القرآن، ص8.

<sup>2</sup> الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص331.

<sup>3</sup> يُنظر: محمود شاكر، مدخل إعجاز القرآن، ص. و: زهير ريلات، مقال "الإعجاز القرآني في مسيرته التاريخيّة"، ملتقى أهل التفسير، تاريخ الإضافة: 1433/12/15هـ-2012/10/30م.

<sup>4</sup> يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص47.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

عليه بالتناقض والاستحالة، واللحن وفساد النظم والاختلاف، وأدّلوا في ذلك بعلل؛ ربما أمالت الضعيف العُمر، والحدث العَر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور»<sup>1</sup>.

- والذي يميل إليه العلامة محمود شاكر رحمه الله (ت: 1418هـ=1997م)، أنّ مصطلح الإعجاز كان ثمرة نظير طويل بين الجاحظ وبين شيخه النّظام (ت: 224هـ)، وإن كان لم يجر على لسانه المصطلح بذاته، فإنّه كان يدور في فلكه في كتبه المقررة في هذا الشأن؛ وهي (حجج النبوة، ونظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان).

والأرجح أن يكون هو الذي مهّد إليه بما كان يتردّد عنده عند الكلام عن أسلوب القرآن وبلاغة نظمه من عبارات: (ولو تُحدّي بها أبلغ العرب؛ لظهر عجزه عنها)، و(ولو لم يكن تحداهم في كل ما قلنا، وقّرّعهم بالعجز عمّا وصفنا)، و(فتحدّاهم بما كانوا لا يشكّون أنهم يقدرّون على أكثر منه، فلم يزل يُقرّعهم بعجزهم)، فإنّ لفظ (التحدّي)، المقرون بلفظ (العجز) في كلام الجاحظ، هو الذي أوحى إلى من بعده بمصطلح (الإعجاز)<sup>2</sup>.

ولعلّ أول من استعمل مصطلح (الإعجاز) صراحةً محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي، وهو متوفى سنة 306هـ؛ فبينه وبين الجاحظ (ت: 255هـ) إحدى وخمسون سنة فقط؛ ولا يمتنع أن يكون استثمر فيما اقترب إليه الجاحظ ولم يُصرح به؛ فإنه كان أقرب شيء إلى أن يقول: إن القرآن أعجز العرب أن يأتوا بسورة من مثله؛ فيخرج له منه لفظ (إعجاز القرآن) أو (الإعجاز)، ولكنّه اكتفى بقوله: (يقرّعهم بعجزهم) وأشباهاها من العبارات؛ فجاء الواسطي (ت: 306هـ) واستفاد من تلك المقدمات، وسمّى كتابه (إعجاز القرآن)، فهو أول من ألف في الإعجاز، وقد فُقد هذا الكتاب في جملة ما فقد من كتب التراث<sup>3</sup>.

- ومن الأدلة على أن أول استعمال لمصطلح الإعجاز كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري؛ كتاب علي بن ربن الطبري (ت: 247هـ) (الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ) الذي ألفه قبل منتصف القرن الثالث الهجري، ولم يستخدم كلمتي (إعجاز) و(معجزة)، مع أنّه كان أحوج ما يكون لهذا المصطلح؛ لأنّه بإزاء مُحااجة كُفّار مُعاندين، إذ كان علي بن ربن الطبري هذا نصرانياً شرح الله صدره للإسلام زمن الخليفة المتوكل، فأعلن إسلامه على يد الخليفة، وكان له عمّ نصراني متعصب اسمه يحيى بن النعمان الطبري، فأنكر

<sup>1</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 23.

<sup>2</sup> يُنظر: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص 23-26.

<sup>3</sup> يُنظر: الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 106. و: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص 26.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

على ابن أخيه إسلامه، فقام بتأليف كتابه للرد على عمه وتلامذته، وهو من أوائل الكتب المؤلفة في مقارنة الأديان، والانتصار للإسلام والقرآن، وإثبات نبوة النبي ﷺ. أقول: رغم أنه كان في هذه الأجواء التي تجعل من استعمال كلمة (الإعجاز) أمرًا منطقيًا، وفي بيئة ملائمة، ولكنه استخدم مكانها كلمة (آية) التي كانت لا زالت رائجة ذائعة عند العلماء، وما ذلك - والله أعلم - إلا لأنَّ مُصطلح (الإعجاز) لم يظهر بعد<sup>1</sup>.

### المسألة الثانية: تاريخ التأليف في إعجاز القرآن

قسّم أهل الشأن التأليف في إعجاز القرآن الكريم قسمين، عند القدماء وعند المحدثين.

#### 1- أمّا عند القدماء: فقد مرّ هذا الطور بثلاثة أدوار:

- الأول: دور الإشارات؛ والمقصود به الزمن الذي لم تستقل فيه قضية الإعجاز بالتأليف المنفرد؛ بل كانت هناك إشارات إليها في بعض المصادر التي عُنت على وجه الخصوص بمعاني القرآن وإعرابه، فإنَّ فيها شيئًا غير قليل من الكلام عن أساليب القرآن وطرائق التعبير الواردة فيه، ومعنى ذلك أنَّ الكلام عن الإعجاز فيها كان بعيدًا عن التعقيد النظري، إنما هو إشارات وإمحاءات تطبيقية على آي القرآن عند الكلام عن أساليب القرآن من التشبيهات والكنائيات والاستعارات وغيرها؛ ممَّا كان النواة الأولى لمن تكلم في بلاغة القرآن من بعد، ومن الكتب التي يمكن إدراجها في هذا الصنف: معاني القرآن للفراء رحمه الله (ت: 207هـ)، ومجاز القرآن لأبي عبيدة رحمه الله (ت: 209هـ).

- كما لا يمكن أن نُغفل في هذه الفترة، دور النّظام (ت: 224هـ) شيخ الجاحظ في الاعتزال، ودور تلميذه الجاحظ كذلك (ت: 255هـ)؛ فإنَّ لهما فضلًا كبيرًا في بلورة مصطلح الإعجاز، وإعداده للبروز، وإن كانت نظرهما له مختلفة؛ فإنَّ النّظام من القائلين بالصرّفة، بل لعلّه مُبتدعها، فيما الجاحظ من أنصار الإعجاز الذاتي البياني، وهو ما بثّه في مؤلفاته الموجودة والمفقودة، من قبيل: حجج النبوة، والبيان والتبيين، والحيوان، ونظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان؛ الذي ردّ فيه على شيخه النّظام.

- ونبيّه كذلك على مساهمات ابن قُتيبة رحمه الله (ت: 276هـ) في هذا؛ خاصّة في كتبه المتعلقة بالقرآن الكريم؛ ك(تأويل مشكل القرآن) و(تفسير غريب القرآن)، وليس له رحمه الله تأليف مستقل في قضية الإعجاز القرآني، ولكنها مبنوثة في كتبه من خلال شيعين: الرّد على الملاحدة والشعوبيين ممن طعنوا في

<sup>1</sup> يُنظر: نعيم الحمصي، فكرة الإعجاز من البعثة إلى العصر الحاضر، ص7. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص81-82.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

القرآن الكريم، وبيان بلاغة أساليب القرآن الكريم في مسائل التشبيه والاستعارة والمجاز والتكرار والزيادة وما إليها.

- الثاني: دور الرسائل؛ وهي الكتب صغيرة الحجم، أو ما يُقابلُ (الأجزاء) عند المحدثين (وهي المسائل التي تُكتب في عشرين ورقةً أو نحوها)، وهذا الدور بدأت تظهر فيه كتبٌ مُتخصِّصةٌ في (الإعجاز) لكنها صغيرة الحجم وجيزة المضمون، ومن أشهر رسائل هذه الفترة:

- النكت في إعجاز القرآن للرّماني رحمه الله (ت:384هـ)، وسبب تأليفه لهذا الكتاب سؤال من أحد طلبته عن ذكر نكت في إعجاز القرآن من غير تطويل (والنكت: هي المسائل اللطيفة والأفكار النادرة القيمة حول إعجاز القرآن). وقد ذكر أنّ أوجه الإعجاز سبعة على الإجمال؛ أهمّها الصرْفَةُ والبلاغة.

- بيان إعجاز القرآن للخطّابي رحمه الله (ت:388هـ)، وخلاصة ما فيه قوله بالإعجاز البياني للقرآن، وسبقه الجرجاني إلى الإشارة إلى قضية النظم، وتنبهه على الإعجاز النفسي.

- الثالث: دور الكتب؛ وهنا بدأت الكتب التّخصُّصية طويلة النّفس في قضية الإعجاز القرآني تظهر، ولعلّ قرناً من قرون التّاريخ الهجريّ، لم يخلُ من تأليفٍ في الإعجاز القرآنيّ، ومن ذلك:

- إعجاز القرآن للباقلانيّ (ت:403هـ)

- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ (ت:471هـ)

- الكشّاف للزّحشريّ (ت:538هـ)

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (606هـ)

- المجيد في إعجاز القرآن المجيد للرّمكاني (ت:651هـ)

**2- وأما عند المحدثين:** فكثيرٌ أيضاً، ولكن أهمّ المؤلفات:

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ت:1356هـ=1937م)

- النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز (ت:1377هـ=1958م)

- الإعجاز البياني في القرآن، لعائشة عبد الرحمن (ت:1419هـ=1998م)

- مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاکر (ت:1418هـ=1997م).<sup>1</sup> رحم الله الجميع

<sup>1</sup> يُنظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص105 وما بعدها. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص37 وما بعدها. وأما أشرنا هنا إشارات فقط إلى المؤلفات في الإعجاز، لأننا سنأتي على ذكرها تفصيلاً في المحاور الثلاثة الآتية، فذكرها هنا من قبيل (اللفّ)، وسيأتي (نشرها).

## المحاضرة الثالثة: مسائل متعلقة بالإعجاز

مما يحسنُ بالطَّالِبِ معرفته، بعد الإلمام بمفهوم الإعجاز وتأصيله، والإحاطة بشيءٍ من تاريخِ مُصطلحه والتَّأليف فيه، إدراكُ بعضِ المسائلِ الَّتِي تَعَلَّقُ به، ولا يكادُ يخلو منها مؤلِّفٌ في الإعجاز، وهذه المسائل هي: أوجه الإعجاز، والقدر المعجز، والصِّرفة. وقبل الشروع فيها سنمهد لها بالتمهيد الآتي:

### تمهيدٌ: في أنَّ الإعجاز صفةٌ لكلام الله ﷻ

من المعلوم أنَّ الله ﷻ يتكلَّم بما شاء متى شاء كيف شاء: «والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:148]، فكان عبادة العجل - على كفرهم - أعرفَ بالله من المعتزلة<sup>1</sup>؛ فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضا! وقال تعالى عن العجل أيضا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:89]، فعلم أنَّ نفي رجوع القول، ونفي التكلُّم، نقصٌ يُستدلُّ به على عدم ألوهية العجل»<sup>2</sup>.

إذا تقرَّر هذا، فإنَّ السلف يعتقدون: «أنَّ الله تعالى صفة الكلام، وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه، لا ابتداء لا تصافه بها، ولا انتهاء، يتكلم بها بمشيئته واختياره، وكلامه تعالى أحسن الكلام، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ إذ الخالق لا يُقاس بالمخلوق»<sup>3</sup>.

فلما كان كلام الله جلّ وعلا صفة من صفاته، وعلمنا من قبل أن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، أيقنا أنَّ كلامه ﷻ لا يشبه كلام المخلوقين، ومن ثمَّ، كان كلامه ﷻ مُعْجَزًا لجميع خلقه، والإعجاز صفة من صفات كلامه ﷻ، يقول الدكتور صبري المتولي - في معرض تعقيبه على نصِّ للزَّافعي؛ يصف فيه القرآن بأنَّه أثر من الآثار الإلهية! -: «والحقُّ أنَّ القرآن ليس أثرًا من الآثار الإلهية، وإنما هو صفة من الصفات الإلهية، وإذا كانت الصِّفة تتبع الموصوف كمالاً أو نقصاناً، فإنَّ كلام الله لا بدَّ أن

<sup>1</sup> هذه الشدّة منه . رحمه الله . على المعتزلة، لأنهم أنكروا أن يكون الله جلّ وعلا متكلمًا، وادّعوا أنَّ القرآن كلامه مخلوق، وهو كلام محدث، فيه انحراف بيّن!

<sup>2</sup> ابن أبي العزّ الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية، ص333.

<sup>3</sup> عبد الله الجديع، العقيدة السلفية في كلام رب البرية، ص79.

يكون جميلاً كجماله، كاملاً ككماله، جليلاً كجلاله، ولهذا فإنّ النفس البشريّة، مهما أحسّت بأوجه الإعجاز، وأخذت بمظهره، فإنّ حقيقته ستظلّ سرّاً من أسرار الله، وشأن كلام الله في ذلك شأن سائر صفاته»<sup>1</sup>.

### المسألة الأولى: أوجه الإعجاز

المقصود بأوجه الإعجاز: التواحي التي وقع بها تعجيز القرآن الكريم للخلق؛ أهي بلفظه وفصاحة كلمه؟ أم بما تضمّنته هذه الألفاظ من المعاني الفاضلة والإشارات الموحية؟ أم بأسلوبه الفدّ الفريد؟ أم بنظّمه وصورته الظاهرة؟ أم بما ينجرّ عن هذه الصّورة من موجات وأصوات؟ أم بإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلّة؟ أم بحكمه وتشريعاته؟ أم بسلامته من التناقض والاختلاف، رغم تباين المواضيع، وتباعد فترات النزول؟ أم هي بجميع ذلك، وغيره أيضاً ممّا لم يُذكر؟

وإذا استثنينا الوجه البيانيّ في إعجاز القرآن؛ إذ يكاد يُطبّق أهل الشّأن على أنّه مُراد؛ لأنه لا تخلو منه آية من كتاب الله، فإنّ بقيّة الأوجه قد أخذت حيزاً لا بأس به من الجدل حول إثباتها أو نفيها؛ إذ هي مُفرّقة فيه، ومسألة أوجه الإعجاز . عموماً . نالت مجالاً واسعاً في مؤلّفات من كتب في الموضوع، كونها نقطة محوريّة لا بُدّ من التّعريض لها، حتّى عدّ اختلاف أهل الملة في وجه الإعجاز ما هو؟ وجهاً من وجوه الإعجاز<sup>2</sup>.

وقد تناول هذه المسألة بالسط، الكثير؛ فالباقلانيّ (ت:403هـ) . مثلاً . خصّص فصلاً في (إعجاز القرآن) أسماء (فصل: في جملة وجوه إعجاز القرآن) ذكر فيه هذه الأوجه على الإجمال، وأردفه بأخر يفصّل ما أجمل أولاً (فصل: في شرح ما بيّناه من وجوه إعجاز القرآن)<sup>3</sup>، وكذلك فعل من قبله الخطّابيّ (ت:388هـ) في (بيان

<sup>1</sup> صبري المتولي، منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، ص251.

<sup>2</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الريم، ص29. و: محمّد العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ص369.

<sup>3</sup> ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص75.72.

إعجاز القرآن<sup>1</sup>، ومن بعده القاضي عياض (ت: 544هـ) في (الشفا)<sup>2</sup>، والزركشي (ت: 794هـ) في (البرهان)<sup>3</sup>، والسيوطي (ت: 911هـ) في (الإتقان)<sup>4</sup>، والغرض التمثيل لا الاستقصاء.

- قال الباقلاني رحمه الله (ت: 403هـ): «فصل في جملة وجوه إعجاز القرآن: ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز»<sup>5</sup>. وهذه الأوجه الثلاثة هي:

1- ما يتضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. وقد وقعت كما أخبر؛ من قبيل قول الله ﷻ: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)، وقوله تعالى: (غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلَبُونَ) وغيرها.

2- أُمِّيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ: إذ أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ، أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم ﷻ إلى حين مبعثه، ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلا عن تعلم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملائماً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه - علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عز وجل: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا رِتَابَ الْمُبْتَطَلُونَ).

3- أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه؛ فلا هو بالشعر، ولا هو بالنثر والخطب التي عهدوها، وإنما هو شيءٌ خارجٌ عن جميع ذلك<sup>6</sup>.

- ومما ذكر القاضي عياض حقه الله (ت: 544هـ) في هذا قوله: «اعلم وققنا الله وإياك: أن كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتخصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه»<sup>7</sup>. وهذه الأربعة:

<sup>1</sup> يُنظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 21 وما بعدها.

<sup>2</sup> يُنظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج 1، ص 500 وما بعدها.

<sup>3</sup> يُنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 93 وما بعدها.

<sup>4</sup> يُنظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 4، ص 7 وما بعدها.

<sup>5</sup> الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 33.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 33-35.

<sup>7</sup> القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج 1، ص 500.

1- حُسْنُ تَأْلِيفِهِ، وَالتَّمَامُ كَلِمَهُ، وَفَصَاحَتُهُ وَوَجْوهُ إِيجَازِهِ، وَبَلَاعَتُهُ الخَارِقَةُ عَادَةَ العَرَبِ. إذ أن تحت كل كلمة منه جملاً كثيرة وفصولاً جمة، وعلوماً زواجر. ومما نقل في هذا ما يروى عن الأصمعي رحمه الله (ت: 216هـ): أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ جَارِيَةٍ، فَقَالَ لَهَا: قَاتِلِكِ اللهُ مَا أَفْصَحَكَ !! فَقَالَتْ: أَوْ يَعِدُّ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)؛ فَجَمَعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَهَيِّئِينَ وَحَبْرَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ!!

2- صُورَةُ نَظْمِهِ العَجِيبِ وَالأسْلُوبِ العَرِيبِ المُخَالِفِ لِأسَالِيبِ كَلَامِ العَرَبِ وَمَنَاهِجِ نَظْمِهَا وَنَثْرِهَا الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ، وَوَقَفَتْ مَقَاطِعُ آيِهِ وَأَنْتَهَتْ فَوَاصِلُ كَلِمَاتِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُوْجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيرٌ لَهُ، وَلَا اسْتِطَاعَ أَحَدٌ مُمَاتَلَةً شَيْءٍ فِيهِ مِنْهُ بَلْ حَارَتْ فِيهِ عُقُوبُهُمْ.. واندهشت دُونَهُ أَحْلَامُهُمْ. قال القاضي عياض رحمه الله (ت: 544): «وَالِإِعْجَازُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ التَّوَعِينِ الإِيجَازُ وَالبَلَاعَةُ بِذَاتِهَا، وَالأسْلُوبُ العَرِيبُ بِذَاتِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نَوْعٌ إِعْجَازٌ عَلَى التَّحْقِيقِ لَمْ تَقْدِرِ العَرَبُ عَلَى الإِثْنَانِ بِوَاحِدٍ مِنْهُمُ؛ إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ خَارِجٌ عَنِ قُدْرَتِهَا، مُبَايِنٌ لِفَصَاحَتِهَا وَكَلَامِهَا، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ أَيْمَةِ المُحَقِّقِينَ»<sup>1</sup>.

3- الْوَجْهُ الثَّلَاثُ مِنَ الإِعْجَازِ، مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الإِخْبَارِ بِالمُعْجَبَاتِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ وَلَمْ يَقَعْ؛ فَوَجَدَ كَمَا ورد على الوجه الذي أخبر. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَعْلَبُونَ) وَقَوْلِهِ: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) وَقَوْلِهِ: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ) الآيَةِ. وَقَوْلِهِ: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ» إِلَى آخِرِهَا.

4- الْوَجْهُ الرَّابِعُ مَا أَنْبَأَ بِهِ مِنْ أَحْبَابِ القُرُونِ السَّالِفَةِ وَالأُمَمِ البَائِدَةِ وَالشَّرَائِعِ الدَّائِرَةِ، مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ القِصَّةَ الوَاحِدَةَ إِلَّا القُدُّ مِنْ أَحْبَابِ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِي قَطَعَ عُمُرُهُ فِي تَعَلُّمِ ذَلِكَ. فَيُورِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ، وَيَأْتِي بِهِ عَلَى نَصْبِهِ، فَيَعْتَرِفُ العَالِمُ بِذَلِكَ بِصِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ وَأَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَنْلَهُ بِتَعْلِيمٍ. وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا اشْتَعَلَ بِمَدَارِسَةٍ وَلَا مُتَافِنَةٍ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ، وَلَا جَهَلَ حَالَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُونَهُ ﷺ عَنْ هَذَا فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ مَا يَنْتَلُو عَلَيْهِمْ مِنْهُ ذِكْرًا؛ كَقِصَصِ الأنبياءِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، وَحَبْرِ مُوسَى وَالحَضْرِيِّ، وَيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَأَصْحَابِ الكَهْفِ، وَذِي القُرْنَيْنِ، وَلُقْمَانَ وَابْنِهِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ.

<sup>1</sup> القاضي عياض، الشفا، ج1، ص514.

قال عياض رحمه الله (ت:544هـ) بعد أن ساق هذه الأوجه: «هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيّنة لا نزاع فيها ولا مرية»<sup>1</sup>.

- أمّا الزركشي رحمه الله (ت:794هـ)؛ فقد ذكر أوجهًا كثيرةً بلغ بها اثني عشر (12) وجهًا وأكثر، منها:

1- أنه شيء لا يمكن التعبير عنه وهو اختيار السكاكي حيث قال في المفتاح وأعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدرِك ولا يُمكن وصفه كاستقامة الوزن تُدرِك ولا يُمكن وصفها وكالملاحة وكما يُدرِك طيب النعم العارض لهذا الصوت ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا باتقان علمي المعاني والبيان والتّمرن فيهما وقال أبو حيان التّوحّيدي في البصائر: لم أسمع كلامًا ألصق بالقلب وأغلق بالنفس من فصل تكلم به بُندار بن الحسين الفارسي وكان بحرًا في العلم وقد سُئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال هذه مسألة فيها حيف على المعنى؛ وذلك أنه شبيه بقولك ما موضع الإنسان من الإنسان فليس للإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملة فقد حَققتَه ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاولة وهدى لقائله ولين في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حازت العقول وتاهت البصائر عنده.

2- ومنها أنه لم يزل ولا يزال غصًا طريًا في أسمع السامعين وعلى ألسنة القارئ.

3- ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعدوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر؛ لأنّ الجزالة من الألفاظ التي لا تُوجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعدوبة من ما يُضادها من السلاسة والسهولة، فمن نحو الصورة الأولى؛ فإنما يقصد الفحامة والرّوعة في الأسماع، مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم، ومن نحو الثانية؛ قصد كون الكلام في السماع أعذب وأشهى وألذ، مثل أشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين، وترى ألفاظ القرآن قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز»<sup>2</sup>.

المسألة الثانية: القدر المعجز

<sup>1</sup> المصدر السابق، ص526.

<sup>2</sup> يُنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص93 وما بعدها.

المراد بالقدر المعجز هو: القدر من القرآن الذي يقع به التحدي، وتطلب إليه المعارضة؛ أهو جميع القرآن؟ أم سورة طويلة منه؟ أم أي سورة مهما كان طولها؟ أم كل جزء تبينت به التراكيب وخصائص الكلم؟ أم غير ذلك؟

وقد اختلفت آراء أهل الشأن في تحديد هذا القدر؛ فمن قائل:

- أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه، أو بكل سورة برأسها.

- ويذهب بعضهم إلى أن المعجز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ).

- ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات<sup>1</sup>.

قال الباقلاني رحمه الله (ت:403هـ): «الذي ذهب إليه عامة أصحابنا، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في كتبه: أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها. قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز. قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر.

وذهبت "المعتزلة" إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة. وقد حكي عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة.

وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً إلى السور كلها، ولم يخص، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز<sup>2</sup>».

- ومردّد هذا الاختلاف إلى جملة آيات التحدي، وما ورد فيها من تنزل في درجاته، كما سبق بيانه؛ إذ أنّ التحدي انتهى في التنزل إلى سورة واحدة؛ فكان القول بأنّ الإعجاز يقع بكلّ سورة من القرآن طويلة كانت أم قصيرة، أو ما يعادلها من القرآن الكريم، قولاً قوياً. قال ابن كثير رحمه الله (ت:774هـ): «قوله: (فأتوا بسورة من مثله)، وقوله في سورة يونس: (بسورة مثله) يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنّها

<sup>1</sup> يُنظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص271.

<sup>2</sup> الباقلاني، إعجاز القرآن، ص254.

نَكَرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَتَعْمُ كَمَا هِيَ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ، فَأَلِيعَازُ حَاصِلٌ فِي طَوَالِ السُّورِ وَقِصَارِهَا، وَهَذَا مَا أَعْلَمُ فِيهِ نِزَاعًا بَيْنَ النَّاسِ سَلَفًا وَخَلْفًا»<sup>1</sup>.

### المسألة الثالثة: الصَّرْفَةُ وما يتعلَّقُ بها

- وإن عدّها بعضهم وجها من وجوه الإعجاز، إلا أنّ الكلام عنها - في هذا الموضوع - جاء بوصفها مسألة منفردة، وذلك لاعتبارين:

الأول: اعتبار قول جماهير حُذَاق أهل العلم في إبطال هذا المعنى وتفنيده، وعلى ذلك لم يبق للصَّرْفَةُ في جملة وجوه الإعجاز مكان، فهي خارجة عن سربها، نايبة عن مضمارها.

والآخر: كثرة الخوض في هذه المسألة من حيث إثباتها أو نفيها، أو الاحتجاج لها أو إبطالها، ما سوَّغ إفرادها بالذكر، وبسط شيء من الكلام حولها<sup>2</sup>.

- معنى الصَّرْفَةُ: أنّ العرب لما تُحَدُّوا إلى أن يأتوا بمثل القرآن أو ببعض منه، صرفهم الله عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن عاقبهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات<sup>3</sup>.

- أمّا عن اشتها هذه المسألة بهذا الاسم حتى صار (علمًا) عليها، فيقول الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله (ت: 1393هـ=1973م): «ولعلّها بفتح الصاد وسكون الراء، وهي مرّة من (الصَّرْف)، وصيغ بصيغة المرّة، للإشارة إلى أنّها صرفٌ خاصّ، فصارت كالعلم بالعلبة»<sup>4</sup>.

- وهي قول باطل؛ يرُدُّه التَّقْلُّ والعقل والإجماع، قال الزركشي رحمه الله (ت: 794هـ): « وَهُوَ قَوْلٌ فَاسِدٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهِمْ مَعَ بَقَاءِ قُدْرَتِهِمْ، وَلَوْ سَلِبُوا الْقُدْرَةَ لَمْ يَبْقَ فَائِدَةٌ لِاجْتِمَاعِهِمْ، لِمَنْزِلَتِهِ مَنْزِلَةَ اجْتِمَاعِ الْمَوْتَى وَلَيْسَ عَجْزُ الْمَوْتَى بِكَبِيرٍ يُحْتَفَلُ بِذِكْرِهِ. هَذَا مَعَ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ عَلَى إِضَافَةِ الْإِعْجَازِ إِلَى الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُعْجِزًا غَيْرَهُ وَلَيْسَ فِيهِ صِفَةُ إِعْجَازٍ؟ بَلِ الْمُعْجِزُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ سَلَبَهُمْ قُدْرَتَهُمْ عَنِ الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهِ. وَأَيْضًا يَلْزَمُ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّرْفَةِ فَسَادٌ آخَرٌ وَهُوَ زَوَالُ الْإِعْجَازِ بِزَوَالِ زَمَانٍ

<sup>1</sup> ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص203.

<sup>2</sup> يُنظر: العيد حذيق، جهود أهل السنة والجماعة في إعجاز القرآن الكريم، ص22 وما بعدها.

<sup>3</sup> يُنظر: الزركشي، البرهان، ج2، ص93-94.

<sup>4</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص103.

التَّحْدِي، وَخُلُو الْقُرْآنِ مِنَ الْإِعْجَازِ، وَفِي ذَلِكَ حَرْقٌ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى بَقَاءِ مُعْجِزَةِ الرَّسُولِ الْعُظْمَى، وَلَا مُعْجِزَةَ لَهُ بَاقِيَةٌ سِوَى الْقُرْآنِ، وَخُلُوهُ مِنَ الْإِعْجَازِ يُبْطِلُ كَوْنَهُ مُعْجِزَةً»<sup>1</sup>.

كما ذكر من قبله الباقلاني رحمه الله (ت:403هـ) أن «مَّا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِالصَّرْفَةِ: أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمُعَارِضَةُ مُمَكِّنَةً، وَإِنَّمَا مَنَعَ مِنْهَا الصَّرْفَةُ؛ لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ مُعْجِزًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَنْعُ مُعْجِزًا، فَلَا يَتَضَمَّنُ الْكَلَامُ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِ فِي نَفْسِهِ»<sup>2</sup>.

- ولعلَّ أوَّل من أثير عنه القول بـ(الصَّرْفَةِ)؛ النَّظَّامُ (ت:224هـ) شيخُ الجاحظ. قال الرَّافِعِيُّ رحمه الله (ت:1356هـ=1977م): «فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النَّظَّام إلى أن الإعجاز كان بالصرفه، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها؛ فكان هذا الصَّرْفُ خارقاً للعادة. قلنا وكأنه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن.

وهذا الذي يروون عنه أحد شطرين من رأيه، أما الشطر الآخر فهو الإعجاز إنما كان من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية.

وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفه أن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني؛ إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم، وهذا رأي بين الخلط كما ترى. غير أن النَّظَّام هو الذي بالغ في القول بالصرفه حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرف، بيد أنه شب في ناشئة الفتنة الكلامية، فلم ينتفع بيقين»<sup>3</sup>.

- والقول بالصَّرْفَةِ على كلِّ حالٍ بعيدٌ عن البيئة الإسلامية؛ إذ أنه من جملة ما حاكى فيه المتكلمون ما تُرجم من آثار الأمم الشَّرْقِيَّة؛ الهنديَّة على التحديد، وقلَّدهم فيه وُلوعًا بالوفاد الجديد؛ فجمهور العلماء البراهمة في الهند يعتقدون أن (الفيدا) كتاب الهندوسية البراهمية المقدس، لا يوجد في كلام البشر ما يُماثله، لأنَّ براهما صرفهم عن الإتيان بمثله<sup>4</sup>. والقول بالصَّرْفَةِ واضح الانتحال من هذا، فليس له أصلٌ عند المسلمين.

<sup>1</sup> الزركشي، البرهان، ج2، ص94.

<sup>2</sup> الباقلاني، إعجاز القرآن، ص30.

<sup>3</sup> الرَّافِعِي، إعجاز القرآن، ص101.

<sup>4</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص39. و: العواجي، إعجاز القرآن عند ابن تيمية، ص97-98.

## المحور الثاني:

# إعجاز القرآن عند المتكلمين (المعتزلة والأشاعرة)

وفيه ثلاثُ مُحاضراتٍ:

– المحاضرة الرابعة: إعجازُ القرآن الجاحظ والرمانيّ

– المحاضرة الخامسة: إعجاز القرآن عند الباقلاني

والجرجاني

– المحاضرة السادسة: إعجاز القرآن عند الزمخشري

## المحاضرة الرابعة: إعجاز القرآن عند الجاحظ (ت: 255هـ) والرماني (ت: 384هـ)

المسألة الأولى: معالم الدرس الإعجازي عند الجاحظ (ت: 255هـ) عفا الله عنه

الكلام عن الإعجاز عند الجاحظ يندرج في (الدور الأول) من أدوار تاريخ التأليف في إعجاز القرآن؛ الذي هو (دور الإشارات)؛ وسنجعل حديثنا عنه في التقطين الآتيتين:

أولاً: من هو الجاحظ؟

- هو: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، المعتزلي، صاحب التصانيف.

- أديب متبحر في فنون اللغة. قال الذهبي رحمه الله (ت: 748هـ): «كأن ماجناً، قليل الدين، له نوادر.

[... و] كأن من محور العلم، وتصانيفه كثيرة جداً. قيل: لم يفع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنّه

كان يكثر دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة، وكان باقعة في قوة الحفظ»<sup>1</sup>.

- من أشهر تصانيفه: البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، والبخلاء.

- توفي الجاحظ سنة: 255هـ<sup>2</sup>.

ثانياً: خلاصة رأيه في الإعجاز

ليس للجاحظ مؤلف خاص في إعجاز القرآن - كما أسلفنا عند تأريخ مصطلح الإعجاز -؛ ولكن له إشارات كثيرة في كتبه التي وصلتنا؛ خاصة في كتابيه (الحيوان، والبيان والتبيين)، ومجموع رسائله الذي فيه رسالة ميسسة الصلة بقضية الإعجاز القرآني؛ وهي رسالة (حجج النبوة)، ولكون كلامه في الإعجاز مبثوثاً في ثنايا كتبه؛ فسُحاول أن نركّز على ثلاث مسائل تُوقِّفنا على مجمل رأيه، وهي: إعجاز القرآن آية من آيات النبوة، والقدر المعجز، ووجه الإعجاز. وهذا تفصيلها:

- إعجاز القرآن آية من آيات النبوة: وهذا المعنى دندن حوله كثيراً الجاحظ، وكلماته فيه هي التي

كانت مصدر إلهام من جاء بعده ممن تكلم في الإعجاز، خاصة بالنسبة لمصطلحات التحدّي والعجز والمعارضة، ولعلنا ننتقي منها بعض النصوص الدالة:

<sup>1</sup> الذهبي، السير، ج11، ص527.

<sup>2</sup> يُنظر: ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج5، ص2101. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص470. و:

الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص526.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

- فمن ذلك؛ تمهيدُهُ للكلام عن إعجاز القرآن، بأنَّ آيةَ كَلِّ نَبِيٍّ تأتي على تَمَطِّ الشَّيْءِ الَّذِي برع فيه قومُهُ، حتَّى يكونَ التَّحْدِي في جنسِ ما يُحْسِنُه القوم؛ فلمَّا برع قومُ فرعون في السحر؛ أتاهم موسى عليه السلام بما يُبطلُهُ ويُوهِنُّه، ويكشفُ ضعفه ويُظهره، وهو العصا التي تنقلب حية. ولما برع قومُ عيسى عليه السلام في الطِّبِّ؛ أتاهم عيسى عليه السلام بما يعجزون عن مثله؛ إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص<sup>1</sup>. قال الجاحظ: «وكذلك دهرَ محمد صلى الله عليه وسلم، كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله صلى الله عليه وسلم؛ فتحدهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه. فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينتقصهم على نقصهم، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم. وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط، مع سائر ما جاء به من الآيات، ومن ضروب البرهانات»<sup>2</sup>.

- كما يقول: «مع أن محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل موقع، كموقع قلبي البحر من العين، وذلك قوله لقريش خاصة، وللعرب عامة، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء، والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيذة، والتجارب والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتم في تكذبي».

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف علمهم، والكلام كلامهم، وهو سيد علمهم، فقد فاض بياضهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخناسف والجعلان، والحمير والحمام، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب. ولهم بعدُ أصنافُ النظم، وضروب التأليف، كالقصيد، والرجز، والمزدوج، والمجانس، والأسجاع والمنثور. وبعد، فقد هجوه من كل جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادوه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم أثبت الناس حقدًا، وأبعدهم مطلبًا، وأذكرهم لخير أو لشر، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوة، ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص278-279.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ج3، ص279-280.

<sup>3</sup> الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص274.

- كما أن من أجل النصوص التي نقلها عنه السيوطي رحمه الله (ت: 911هـ) في (الإتقان) قوله: «بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ شَاعِرًا وَحَاطِبًا، وَأَحْكَمَ مَا كَانَتْ لُغَةً، وَأَشَدَّ مَا كَانَتْ عُدَّةً، فَدَعَا أَفْصَاهَا وَأَدْنَاهَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ، فَدَعَاهُمْ بِالْحُجَّةِ، فَلَمَّا قَطَعَ الْعُدْرَ وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ، وَصَارَ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِفْرَارِ الْهُوَى وَالْحَمِيَّةَ، دُونَ الْجَهْلِ وَالْحِيْزَةِ، حَمَلَهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ بِالسَّيْفِ، فَنَصَبَ لَهُمُ الْحَرْبَ وَنَصَبُوا لَهُ، وَقَتَلَ مِنْ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَبَنِي أَعْمَامِهِمْ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَجْحُجُّ عَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَيَدْعُوهُمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى أَنْ يُعَارِضُوهُ إِنْ كَانَ كَاذِبًا، بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ بِآيَاتٍ يَسِيرَةٍ؛ فَكُلَّمَا أَزْدَادَ تَحْدِيًّا لَهُمْ بِهِ، وَتَفْرِيعًا لِعَجْزِهِمْ عَنْهَا؛ تَكَشَّفَ مِنْ نَفْسِهِمْ مَا كَانَ مَسْتُورًا، وَظَهَرَ مِنْهُ مَا كَانَ خَفِيًّا، فَحِينَ لَمْ يَجِدُوا حِيلَةً وَلَا حُجَّةً؛ قَالُوا لَهُ: أَنْتَ تَعْرِفُ مِنْ أَحْبَابِ الْأُمَّمِ مَا لَا نَعْرِفُ، فَلِذَلِكَ يُمَكِّنُكَ مَا لَا يُمَكِّنُنَا، قَالَ: فَهَاتُوها مُفْتَرِيَاتٍ، فَلَمْ يَزُمْ ذَلِكَ حَاطِبًا، وَلَا طَمَعَ فِيهِ شَاعِرٌ، وَلَوْ طَمَعَ فِيهِ لَتَكَلَّفَهُ، وَلَوْ تَكَلَّفَهُ لَظَهَرَ ذَلِكَ، وَلَوْ ظَهَرَ لَوَجَدَ مَنْ يَسْتَحْجِدُهُ وَيُحَامِي عَلَيْهِ، وَيُكَايِدُ فِيهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ عَارَضَ وَقَابَلَ وَنَاقَضَ، فَدَلَّ ذَلِكَ الْعَاقِلَ عَلَى عَجْزِ الْقَوْمِ، مَعَ كَثْرَةِ كَلَامِهِمْ، وَاسْتِحَالَةِ لُغَتِهِمْ، وَسُهُولَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَكَثْرَةِ شُعْرَائِهِمْ وَكَثْرَةِ مَنْ هَجَاهُ مِنْهُمْ، وَعَارَضَ شُعْرَاءَ أَصْحَابِهِ وَحُطَبَاءَ أُمَّتِهِ، لِأَنَّ سُورَةً وَاحِدَةً وَآيَاتٍ يَسِيرَةً كَانَتْ أَنْقَضَ لِقَوْلِهِ وَأَفْسَدَ لِأَمْرِهِ وَأَبْلَغَ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَسْرَعَ فِي تَفْرِيقِ أَتْبَاعِهِ مِنْ بَدْلِ النَّفُوسِ وَالخُرُوجِ مِنَ الْأَوْطَانِ وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ وَهَذَا مِنْ جَلِيلِ التَّدْبِيرِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ هُوَ دُونَ فُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ بِطَبَقَاتٍ وَهُمْ الْقَصِيدُ الْعَجِيبُ وَالرَّجْزُ الْفَاخِرُ وَالْحُطْبُ الطَّوَالُ الْبَلِيغَةُ وَالْقِصَارُ الْمُوجِزَةُ وَهُمْ الْأَسْجَاعُ وَالْمُرْدُوجُ وَاللَّفْظُ الْمَنْتُورُ، ثُمَّ يَتَحَدَّى بِهِ أَفْصَاهُمْ بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ عَجْزَ أَدْنَاهُمْ فَمُحَالٌ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - أَنْ يَجْتَمِعَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ عَلَى الْعَلْطِ فِي الْأَمْرِ الظَّاهِرِ وَالْحَطْأِ الْمَكْشُوفِ الْبَيِّنِ؛ مَعَ التَّفْرِيعِ بِالنَّقْصِ وَالتَّوْقِيفِ عَلَى الْعَجْزِ، وَهُمْ أَشَدُّ الْخَلْقِ أَنْفَةً، وَأَكْثَرُهُمْ مُفَاخَرَةً، وَالْكَالَامُ سَيِّدُ عَمَلِهِمْ، وَقَدْ اِحْتَاجُوا إِلَيْهِ؛ وَالْحَاجَةُ تَبْعَتْ عَلَى الْحِيلَةِ فِي الْأَمْرِ الْعَامِضِ، فَكَيْفَ بِالظَّاهِرِ الْجَلِيلِ الْمُنْفَعَةِ، وَكَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُطَبِّقُوا ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى الْعَلْطِ فِي الْأَمْرِ الْجَلِيلِ الْمُنْفَعَةِ، فَكَذَلِكَ مُحَالٌ أَنْ يَتَزَكَّوهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَجِدُونَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ، وَهُمْ يَبْذُلُونَ أَكْثَرَ مِنْهُ»<sup>1</sup>.

- **القدر المعجز:** ذكرنا من قبل عند الكلام عن القدر المعجز؛ أن أحرى الأقوال بالاعتبار في هذا الصدد؛ أن القدر المعجز من القرآن هو سورة - ولو قصيرة - من القرآن، أو ما يعادلها من الكلام الذي تتضح فيه خصائص التراكيب والأسلوب، ولعلَّ الجاحظ عفا الله عنه من أول من أشار إلى هذه القضية. يقول

<sup>1</sup> السيوطي، الإتقان، ج4، ص6-7. ولم أجد هذا النصَّ للجاحظ بحروفه في كتبه المطبوعة كالبيان والتبيين والحيوان ورسالة حجج النبوة.

في (حجج النبوة): «لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

ألا ترى أن الناس قد كان يتهياً في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع؛ ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»<sup>1</sup>.

- وجه الإعجاز: هذه من المسائل النظرية في إعجاز القرآن، ولم يكن الكلام فيها صراحة على عهد الجاحظ؛ ولكننا لا نعدّم إشارات إليها، ومما يمكن أن ننسب إلى الجاحظ القول به من أوجه الإعجاز؛ وجهان اثنان: الإعجاز البياني، والقول بالصرف<sup>2</sup>.

أما الإعجاز البياني؛ فيمكن أن نعدّ الجاحظ رائد القول به؛ إذ أنه كان من المنافحين عن فصاحة ألفاظ القرآن، وبلاغة معانيه، وتفرد نظمته وأسلوبه. قال الرافعي رحمه الله (ت: 1356هـ=1937م): «أما الجاحظ؛ فإن رأيه في الإعجاز ك رأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه»<sup>3</sup>. ولذلك ألف كتابه (نظم القرآن) الذي لم يبق لنا منه إلا قول الجاحظ ذاته في كتاب (الحيوان): «ولي كتاب؛ جمعت فيه آيات من القرآن؛ لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول، والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، على الذي كتبتك لك في باب الإيجاز وترك الفضول. فمنها رَجَلٌ قوله حين وصف خمر أهل الجنة: (لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون) [الواقعة: 19] وهاتان الكلمتان قد جمعنا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله رَجَلٌ حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: (لا مقطوعة ولا ممنوعة) [الواقعة: 33] جمع بهاتين الكلمتين جميع

<sup>1</sup> الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص229.

<sup>2</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص40.

<sup>3</sup> الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص102.

تلك المعاني. وهذا كثير قد دلتك عليه، فإن أردته فموضعه مشهور<sup>1</sup>. على أن هذا الكتاب مفقود، وجزم الشيخ أبو فهر محمود شاكر رحمه الله (ت: 1417هـ=1998م) أنه يعني كتاب (نظم القرآن)<sup>2</sup>.  
 وأما الإعجاز بالصرفة؛ فإنه من بقايا آثار شيخه النظم فيه، وإن حاول أن يُنكر ذلك بعض المحدثين<sup>3</sup>، قال الرافعي رحمه الله (ت: 1356هـ=1937م): «غير أن الرجل كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في مُنحل، ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها وأوما إليها عن عرض [...] وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه، وهو شيء ينزل على حكم الملايسة، ويعتري أكثر الناس، إلا من تنبه له أو نبه عليه، أو هو يكون ناقلاً ولا ندري»<sup>4</sup>.  
 - والجمع بين الرأيين (الإعجاز البياني والإعجاز بالصرفة) من أشدّ التناقض، ولذلك نجد العلامة محمود شاكر رحمه الله (ت: 1417هـ=1998م) يقول: «ومعنى هذا أن مع القرآن العظيم عجزين؛ عجز مرده إلى الصرفة، وعجز مرده إلى نظم القرآن وتأليفه، أما الجمع بين العجزين؛ فلا يجتمع في عقل أحدٍ يعقل؛ فأحدهما يلغي الآخر [...] لكن هكذا كان ما كان من أبي عثمان الجاحظ البليغ المعتزلي، عقل واحد يجمع بين المتناقضين، جمع لا غضاضة فيه عليه (وهل يُجمع السيفان ويحك في غمد) كما تعجب أبو ذؤيب الهذلي من أمر صاحبه أم عمرو، فأنا أتعجب أيضاً من أمر صاحبي أبي عثمان.  
 ومع ذلك؛ فأنا أظن أن أبا عثمان كان يعاني المشقة من هذا التناقض، بين ما ألفه زمنًا مع صاحبه أبي إسحاق في تأليف القرآن من القول في (الصرفة) التي اخترعها معاً، وما أدت من القول الخبيث الذي قاله أبو إسحاق النظام، وبين ما هدي إليه بالتذوق من أن نظم القرآن وتأليفه يُعجز كل أحد»<sup>5</sup>.  
 كما يؤكد على هذه الحقيقة الأستاذ محمد أبو موسى في قوله: «نعم، هناك تناقض واضح بين القول بالصرفة والبلاغة، لأن الصرفة تعني كما فسرها أبو إسحاق النظام؛ أنهم لولا هذا الصرف لجاءوا بمثله، وذلك يعني أنه ليس خارقاً ببلاغته، وإنما هو خارق بهذا الصرف»<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> الجاحظ، الحيوان، ج3، ص41-42.

<sup>2</sup> يُنظر: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص72.

<sup>3</sup> يُنظر: نعيم الحمصي، فكرة الإعجاز، 56. و: الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص177-178.

<sup>4</sup> الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص102-103.

<sup>5</sup> محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص12-13.

<sup>6</sup> محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص87.

المسألة الثانية: إعجاز القرآن عند الرّماني (ت:384هـ) رحمه الله

الكلام عن الإعجاز عند الرّماني رحمه الله يندرج في الدّور الثّاني؛ الذي هو دور الرّسائل أو الأجزاء؛ لأنّ له في الإعجاز رسالة (النّكت في إعجاز القرآن)، ولكن قبل أن ندلف إلى رأيه في الإعجاز، نعرف به فنقول:

أولاً: من هو الرّماني؟

- الرّماني هو: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني؛ النحوي المتكلم المعتزلي.

- أخذ عن ابن السراج وابن دريد والزجاج، وله تصانيف في جميع العلوم من النحو واللغة والنجوم والفقه والكلام على رأي المعتزلة، ولكن جُلّها مفقود، والموجود منها: النكت في إعجاز القرآن مطبوع، والجامع لعلم القرآن في التفسير، وهو مخطوط؛ المتوفر منه جزء من تفسير سورة آل عمران<sup>1</sup>.

- قال ابن خلكان (ت:681هـ): «والرماني: بضم الراء وتشديد الميم وبعد الألف نون، هذه النسبة يجوز أن تكون إلى الرمان وبيعه، ويمكن أن تكون إلى قصر الرمان، وهو قصر بواسط معروف».

- وقال الذهبي (ت:748هـ): «وَكَانَ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ يِبَالُغُ فِي تَعْظِيمِ الرُّمَّانِيِّ إِلَى الْغَايَةِ، وَيَصِفُهُ بِالتَّلَاهِ، وَالتَّنْزُهُ، وَالفَصَاحَةِ، وَالتَّقْوَى. مَاتَ فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ، عَنِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً. أَصْلُهُ مِنْ سُرٍّ مَنْ رَأَى، وَمَاتَ بِنَعْدَادٍ، وَكَانَ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ عَلَى بَدْعَتِهِ»<sup>2</sup>.

ثانياً: خلاصة رأيه في الإعجاز من خلال رسالته (النّكت في إعجاز القرآن)

- معنى (النّكت): سمى الرّماني رحمه الله كتابه (النكت في إعجاز القرآن)، والنكت هي الآثار اللطيفة التي تحتاج إلى شيء من الفطنة وحسن التّأني لإدراكها، وفي ذلك إشارة إلى أنّه لم يكتب كتابه ليضيء الجوانب المتعددة في الإعجاز، وإنما أوجز رسالة تُشبه المقال<sup>3</sup>، يدلُّك على ذلك:

- دخول الموضوع مباشرة دون مقدمات ممهّدات: كان كتاب (النّكت) إجابةً على سؤالٍ طرّح على الرّماني رحمه الله، ولذلك فإنّه - بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ - دخل في الموضوع مباشرة دون

<sup>1</sup> يُنظر: مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص206.

<sup>2</sup> يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج4، ص1826. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص299. و: الذهبي، السير، ج16، ص533.

<sup>3</sup> يُنظر: أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص85.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

مُقدِّماتٍ. قال الأستاذ فضل عباس رحمه الله: «وما كتبه الرمانيُّ كان إجابةً لبعض طلبة العلم، كما يظهر من مقدمته الموجزة، ولقد التزم الرماني القول الموجز في هذه الرسالة، وهجم على الموضوع دون مقدمات»<sup>1</sup>. وحتى تقف على مقدمة الرمانيِّ ذاتها؛ نقلها بنصِّها. قال: «سألتَ وَقَفَّكَ اللهُ عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون تطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في بلوغ محبتك، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة»<sup>2</sup>.  
- إجمال وجوه الإعجاز في سبعة: استهلَّ الرُّمَّانيُّ رحمه الله رسالته بإجمال الجهات التي وقع بها الإعجاز، وقد نصَّ على أنَّها سبعة هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة.

1- أمَّا ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة؛ فمعناه أنَّ العربَ عجزوا عن مُعارضة القرآن؛ مع أنَّه توفَّر لهم أمران، كلُّ منهما سببٌ في إنجاح مُبتغاهم في معارضته، وهما: توفُّر الدواعي؛ أي القدرة على المعارضة؛ لأنَّ الكلام كلامهم، والصناعة صناعتهم، وقد أعطوا البلاغة والفصاحة طبعًا وسليقة ما لم تُعطه أُمَّة من الأمم. والآخر: شدَّة الحاجة إلى المعارضة؛ ذلك أنَّ القرآن سقَّه أحلامهم، وعاب عبادتهم ومعبوداتهم، ولم يُبق لهم منفذًا لتكذيبه إلاَّ أن يُعارضوه ولو بسورة مثله، ومع ذلك لم يُجرؤ أحدٌ منهم على المعارضة<sup>3</sup>.

قال الرُّمَّانيُّ رحمه الله (ت: 384هـ) في شرح هذا الوجه: «أما توفر الدواعي؛ فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة في واحد كان أو جماعة. والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه، وكل داع يدعو إلى مثله، وهو مع ذلك ممكن له؛ فلا يجوز ألا يقع شربه حتى يموت عطشا، لتوفر الدواعي على ما بينا، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له؛ دل ذلك على عجزه عنه. فذلك توفر الدواعي إلى معارضة القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 42.

<sup>2</sup> الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص 75.

<sup>3</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 43-44.

<sup>4</sup> الرماني، النكت، ص 109.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

2- وأما التحدي للكافة؛ فمعناه أن القرآن الكريم تحداهم قاطبة، واستفزهم جميعا لينهضوا إلى معارضته، فلم يكن ذلك منهم، وهذا راجع إلى عجزهم<sup>1</sup>.

وهذان الوجهان في الحقيقة ليسا أوجهًا للإعجاز، وإنما هما من الشروط التي يجب توفرها في كل معجزة<sup>2</sup>.

3- وأما الصرفة؛ فلم يُطوّل الرّماني في شرحها والاحتجاج لها، وما ذلك والله أعلم إلا لأنه كان من رؤوس الاعتزال، فالمسألة عنده أشبه ما تكون بالمسلمات التي لا تُناقش<sup>3</sup>. وقد قال عنها: «وأما الصرفة؛ فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم؛ في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول»<sup>4</sup>.

4- وأما البلاغة؛ فسياقي الكلام عنها في المسألة التالية.

5- وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية؛ فإنه لما كان من المستحيل أن تقع اتفاقًا على ما يُخبرهم النبي ﷺ؛ خاصة مع كثرتها وتواليها، كان ذلك دليلاً على أنها من عند علام الغيوب. وقد ضرب الرماني على ذلك أمثلة عديدة؛ كقوله تعالى: (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)، وقوله ﷺ: (سيهزم الجمع ويولون الدبر)، وقوله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون). ووقع كل ذلك على النحو الذي أخبر ﷺ لم يتخلف عن ذلك خبر واحد<sup>5</sup>.

6- وأما نقض العادة؛ فليس المقصود به (خرق العادة) المذكور في حدّ المعجزة؛ وإنما المراد به «أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل،

<sup>1</sup> يُنظر: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص 86.

<sup>2</sup> يُنظر: صالح العليوي، مقال (الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 15، سنة 1426هـ-2015م، ص 191.

<sup>3</sup> يُنظر: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص 86-87.

<sup>4</sup> الرماني، النكت، ص 110.

<sup>5</sup> يُنظر: الرماني، النكت، ص 110-111. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 44. و: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص 76.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث؛ فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة<sup>1</sup>.

7- وأما قياسه بكل معجزة؛ فمعناه مُساواة معجزة القرآن المعنوية للمعجزات المادية؛ فلق البحر، وقلب العصا حيّة، من جهة كون الجميع خارقاً للعادة، معجوزاً عن مُعارضته. وهذا عند التحقيق ليس من أوجه الإعجاز؛ لأنه قياس للمعجزة بغيرها بعد أن صارت مُعجزة، وليس بياناً لوجه كونها مُعجزة<sup>2</sup>.

### - العناية والتّركيز على الوجه الرابع (البلاغة):

قدّم الرماني الحديث عن البلاغة، وشغل به أكثر الرسالة؛ إذ تقع الرسالة في حوالي أربعين (40) صفحة، استنفذ منها قرابة الخمس والثلاثين في الوجه البلاغي، وما ذلك إلا لأهمية هذا الوجه عنده، ولكون أغلب الأوجه الأخرى مردّها إليه، أما الوجوه الثلاثة قبلها والوجوه الثلاثة بعدها، فقد أرجأ الحديث عنها إلى آخر الرسالة ليتكلم عنها بإيجاز<sup>3</sup>.

ويقول: «فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة. ومنها ما هو في أدنى طبقة. ومنها ما هو في الوسائط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون تلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس.

وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيبي، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة<sup>4</sup>.

ويقسم الرماني بعد ذلك البلاغة إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمن، والمبالغة، وحسن البيان.

<sup>1</sup> الرماني، النكت، ص111.

<sup>2</sup> يُنظر: محمد أبو موسى، ص86.

<sup>3</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص43. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص50. و: محمد أبو موسى،

الإعجاز البلاغي، ص86.

<sup>4</sup> الرماني، النكت، ص76.

## محاضرات في الإعجاز القرآني د. العيد حذيق كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي

ثم يفسر كل قسم منها، فيعرف الموضوع ثم يقسمه إلى نواحيه ويستشهد لكل ناحية بالآيات القرآنية<sup>1</sup>.

### - طريقة عرض الرُماني للمادة:

لم تَعِبْ طريقة عرض المتكلمين لما دتّم عن الرُماني في (النكت)؛ إذ أنّه كان كلّما قرّر تقريرًا أو أوضح أمرًا؛ إلّا وأتبعه بقوله: (فإن قالوا: كذا؛ قلنا: كذا، وإن قيل: لم كان ذاك؟ قلنا: كذا وكذا)؛ كأنّه يتصوّر مُنازعةً ينازعه فيما يُقرّر؛ فهو يُوردُ الإيراد، ويردُّ عليه بما يحضّره.

كما أنّ من الملاحظ في كتاب الرُماني تركيزه على الشواهد القرآنية، إذ لا تكاد تجده مُستشهدًا على أي نوعٍ من أنواع البلاغات التي ذكرها إلّا بآية من آيات القرآن الكريم.

### - القيمة العلمية لآراء الرُماني عند المؤلفين بعده:

لا ريب أنّ آراء الرُماني رحمه الله التي بثّها في كتاب (النكت)؛ خاصّةً ما تعلّق منها بباب البلاغة، قد هيّأت لنضوج ذلك العلم من بعدُ على يد عبد القاهر الجرجاني، وقد تمثلت جُهوده في التّقسيم، ووضع الضوابط، وتأصيل المصطلحات، والتّمثيل والاستشهاد لكلّ قسم، وحسبُك بُجهد الرُماني رحمه الله قيمةً؛ أن أقسامه العشرة للبلاغة وضوابطها ما زالت هي ذاتها إلى يومنا هذا، مع تعديلاتٍ يسيرة في الشكل والعبارة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 50-51.

<sup>2</sup> يُنظر: صالح العليوي، الإعجاز القرآني بين الرُماني والباقلاني، ص 206-207.

## المحاضرة الخامسة:

### إعجاز القرآن عند الباقلاني (ت:403هـ) والجرجاني (ت:471هـ)

بعد أن أتينا على شيء من بيان إعجاز القرآن عند علمين من أعلام المعتزلة (الجاحظ والرماني) في المحاضرة الرابعة؛ نُخصِّصُ هذه المحاضرة لعلمين من أعلام الأشاعرة؛ هما الباقلاني والجرجاني؛ فنقول:

المسألة الأولى: إعجاز القرآن عند الباقلاني رحمه الله (ت:403هـ)

أولاً: مَنْ هو الباقلاني؟

- الباقلاني هو: أبو بكر مُحَمَّدُ بْنُ الطَّيِّبِ البَصْرِيُّ الباقِلَانِيُّ.

- متكلم على مذهب الأشاعرة، فقيه على مذهب المالكية، إمام بارع في عدة فنون؛ منها الأصول والعقيدة واللغة والفقه والكلام والجدل والمناظرة.

- له مصنّفات كثيرة من جملتها: إعجاز القرآن، الانتصار للقرآن، والتمهيد.

- ممّا قيل عنه أنه: كَانَ وَرْدُهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عِشْرِينَ تَرْوِجَةً فِي الحِضْرِ والسَّفَرِ، فَإِذَا فَرغَ مِنْهَا، كَتَبَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ وَرَقَةً مِنْ تَصْنِيفِهِ.

كان من أذكى العالم، ومن أبرع الناس في المناظرة، ومن طريف ما يُذكر عنه في ذلك: أنه سار رسولاً عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى طَاعِيَةِ الرُّومِ، وَجَرَتْ لَهُ أُمُورٌ، مِنْهَا أَنَّ المَلِكَ أَدخَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ خَوْحَةٍ لِيَدْخُلَ رَاكِعًا لِلْمَلِكِ فَفَطِنَ لَهَا القَاضِي، وَدَخَلَ بِظَهْرِهِ. وَمِنْهَا أَنَّهُ قَالَ لِرَاهِبِهِمْ: كَيْفَ الأَهْلُ والأَوْلَادُ؟ فَقَالَ المَلِكُ: مَهْ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الرَّاهِبَ يَتَنَزَّهُ عَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: تُنَزَّهُونَ عَنْ هَذَا، وَلَا تُنَزَّهُونَ رَبَّ العَالَمِينَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالوَلَدِ! وَقِيلَ: إِنَّ الطَّاعِيَةَ سَأَلَهُ: كَيْفَ جَرَى لَزُوجَةٍ نَبِيكُمْ؟ يَقْصِدُ تَوْبِيخًا؟ فَقَالَ: كَمَا جَرَى لِمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَبَرَّاهُمَا اللهُ، لَكِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَأْتِ بِوَلَدٍ، فَأَفْحَمَهُ.

- تُوفِّي الباقلاني رحمه الله سنة 403هـ<sup>1</sup>.

ثانياً: إعجاز القرآن عند الباقلاني من خلال كتابه (إعجاز القرآن)

الكلام عن إعجاز القرآن عند الباقلاني حديثٌ مُتَشَعِّبٌ؛ لذلك سنحاول أن نُركِّزه في نقاطٍ كالآتي:

<sup>1</sup> القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج7، ص44 وما بعدها. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص269. و:

الذهبي، السير، ج17، ص190 وما بعدها.

- قيمة كتاب (إعجاز القرآن) وثناء العلماء عليه:

يعتبر كتاب الباقلاني (إعجاز القرآن) من أوسع الكتب التي ألفت لبيان إعجاز القرآن<sup>1</sup>، قال الرافعي رحمه الله وهو يُورِّخُ للتأليف في الإعجاز: «وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة 403هـ، فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن)؛ الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة»<sup>2</sup>. ثم قال عنه: «على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز، واحتمل المؤنة فيه بجملتها، من الكلام والعربية والبيان والنقد ووفى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التي أوقع الكلام عليها، حتى عدوه الكتاب وحده؛ لا يشرك العلماء معه كتاباً آخر في خطره ومنزلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده، فانظر ما عسى أن يكون غيره مما سبقه أو تلاه»<sup>3</sup>.

- أهم مضامين الكتاب:

تناول الباقلاني رحمه الله في (إعجاز القرآن) عدة مواضيع، بعضها وثيق الصلة بالإعجاز، والآخر فيه شيء من الكلفة لتعليقه بالإعجاز، وسنحاول التركيز على القسم الأول، ومنه:

- أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن: الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة. إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة، ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً، وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً، إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لا نكروه، أو لا نكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول، وإن لم يتواتر أصل النقل فيه. وبعضها مما نقل من جهة الأحاد، وكان وقوعه بين يدي الأحاد.

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقليين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص74.

<sup>2</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص106.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص107.

<sup>4</sup> يُنظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص8.

- أوجه الإعجاز: وقد أشرنا في مُحاضرةٍ سابقةٍ إلى أنَّه عدّها ثلاثةً، هي: 1 - الإخبار عن الغيوب المستقبلية. 2 - والإنباء عن قصص الأولين وسير المتقدمين مع أمية الرسول. 3 - وبراعة النظم والتأليف والرصف، ثم فصل هذا الإجمال بضرب الأمثلة الكثيرة على كل وجه من الوجوه التي ذكرها. وأغلب الوجوه التي ذكرها تتعلق بالإعجاز البياني. قال الأستاذ فضل عباس رحمه الله: «والباقلاني كان أكثر تفصيلاً في الوجه الثالث، بل إن كتابه يكاد يكون مبنياً على هذا الوجه؛ وهو كون القرآن بديع النظم عجيب التأليف، مُتَنَاهٍ في البلاغة»<sup>1</sup>.

ولعل الجديد الذي أضافه على وجوه الإعجاز التي ذكرها من تقدّمه هو هذا التفصيل والردود المطولة التي ناقش فيها الآخرين، كنفى الشعر عن القرآن ونفى السجع عن القرآن. وقد أكثر الباقلاني من ذكر نصوص من خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

وكان قصده من سوق هذه النصوص الطويلة ليتدبرها العاقل حتى يقع له الفصل بين كلام الآدميين وبين كلام رب العالمين، ويعلم أن نظم القرآن يخالف نظمهم، ويتبين الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغين والخطيبين والشاعرين؛ وبين نظم القرآن جملة. كما اختار نماذج من الشعر المشهود له بالجودة من شعر امرئ القيس وشعر البحري. ومن خلال نقده لقصيدة امرئ القيس وقصيدة البحري ذكر بعض الآيات وأبرز وجوه الإعجاز فيها<sup>2</sup>.

- ردُّ القول بالصرّفة: وقد أشار إليها بقوله: «معنى قولنا: "إن القرآن معجز" على أصولنا: أنه لا يقدر العباد عليه. وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه»<sup>3</sup>. ثمّ شرح هذا المعنى بشيءٍ من التّفصيل، ومن جُمَلته قوله: «فلو كان هذا من ذلك القبيل، أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه - لم تزل أطماعهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت، وكان يدعو إليه سنين كثيرة، وقال عز من قائل: (أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)، وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي، بان أنه خارج عن عاداتهم، وأنهم لا يقدرّون عليه. وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ، لأن ذلك طبعهم

<sup>1</sup> فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص54.

<sup>2</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص75.

<sup>3</sup> الباقلاني، إعجاز القرآن، ص288.

ولغتهم، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم، دون المتأخرين في الصنعة. والذي ذكرناه يدل على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن. وكل من. جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة - لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال»<sup>1</sup>.

وأصرح منه في الدلالة نقله عن أهل الصرفة قولهم: هَلَّا قَلْتُمْ: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة - كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه، مع قدرته عليه. وردّه على ذلك بقوله: «ومما يبطل ما ذكره من القول "بالصرفة" أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها "الصرفة" - لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»<sup>2</sup>.

- القدر المعجز: وهذه المسألة كذلك ذكرنا من قبل رأي الأشاعرة فيها، وأنه سورة من القرآن أو ما يعادلها مما يتبين به ملامح الأسلوب وخصائص التراكيب.

- بعض ما انتقد على الباقلاني في (إعجاز القرآن):

على ما قدمنا في وصف كتاب الباقلاني رحمه الله من أنه جليل في بابه، وأصبح عمدة المصنّفين من بعده؛ فإنّه - كأبي عملٍ بشريّ -، لم يسلم من نقدٍ، ومن ذلك ما قال الرافعي رحمه الله: «والغريب أنه لم يذكر فيه كتابي الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كان يعاصره، وسنشير إليه، وأوماً إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما، فكأنه هو ابتداء بالتأليف في الإعجاز بما بسط في كتابه واتسع، وفي ذلك ما يثبت لنا أن عهد هذا التأليف لا يُرد في نشأته إلى غير الجاحظ.

على أن كتاب الباقلاني وإن كان فيه الجيد الكثير، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنّع له، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ: "لم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"؛ فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام، وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القوم، ونوع وآخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر، ذهب بأكثره وغمرت جملته، وعدّها في محاسنه وهي من عيوبه. وكان الباقلاني - رحمه الله وأتابه - واسع الحيلة في العبارة؛ مبسوط اللسان إلى مدى بعيد، يذهب في ذلك مذهب الجاحظ ومذهب

<sup>1</sup> المصدر السابق، ص 289.

<sup>2</sup> الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 30.

مقلده ابن العميد، على بصيرٍ وتمكنٍ وحسنٍ تصرف، فجاء كتابه وكأنه في غير ما وضع له، لما فيه من الإغراق في الحشد، والمبالغة في الاستعانة، والاستراحة إلى النقل، إذ كان أكبر غرضه في هذا الكتاب أن "ينبه على الطريقة ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة"، وهذه ثلاثة لو بُسط لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب لوسعتها، وهي مع ذلك حشوٌ ووصلٌ<sup>1</sup>.

وجُملة ما في هذه الانتقادات ثلاثة أمورٍ هي:

- عدمُ الإشارةِ إلى مَنْ سبقه إلى التَّأليفِ في باب إعجاز القرآن الكريم، خاصَّةً وأنه استفادَ من بعضهم؛ فنقل على سبيل المثال فصلاً كاملاً في البلاغة عن الرماني رحمه الله ولم يُشر إليه<sup>2</sup>.

- انتقادهُ للجاحظِ وكتابه (نظم القرآن)، مع اختلاف سبب التَّأليفِ وعصره بين الرَّجلين.

- إغراقه في الاستطرادِ في تحليل النُّصوص وإيراد الخُطب والأشعار والنُّقول، ممَّا يُبعدُ المتلقِّي عن استيعابِ الفكرة، كما أشار على ذلك بعضُ الباحثين بقوله: «يظهرُ في كتاب الباقلانيِّ الغموضُ والاستطرادُ، والتَّكرار، وعدم التَّرتيب للمسائل، وعدم التناسق والانتظام»<sup>3</sup>.

وهي نقداً؛ وإن كانت تبدو منطقيَّةً مقبولةً؛ فإنَّها لا تغضُّ من قيمة الكتاب باعتراف الرَّافعيِّ رحمه الله نفسه، لأنَّه ضمَّنه كما قال (روح عصره) وروح ذلك العصر المناقشات وردُّ الشُّبهات، والتَّطويل في الحجاج.

المسألة الثانية: إعجاز القرآن عند الجرجانيِّ رحمه الله (ت: 471هـ)

أولاً: مَنْ هو الجرجانيُّ؟

- أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُرْجَانِيُّ.

- شَيْخُ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ شَافِعِيًّا، عَالِمًا، أَشْعَرِيًّا، ذَا نُسْكِ وَدِينٍ، وَكَانَ آيَةً فِي النَّحْوِ.

- له الكثير من المصنَّفات في علوم اللُّغة العربيَّة تدلُّ على جلاله قدره، من أشهرها ممَّا هو مطبوعٌ موجودٌ بين أيدينا اليوم: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والعوامل المئة.

- ممَّا قيل فيه أنه: كَانَ وَرِعًا قَانِعًا، دَخَلَ عَلَيْهِ لِيَصِّ، فَأَخَذَ مَا وَجَدَ، وَهُوَ يَنْظُرُ، وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَمَا قَطَعَهَا.

<sup>1</sup> الرَّافعي، إعجاز القرآن، ص 106-107.

<sup>2</sup> يُنظر: صالح العليوي، الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني، ص 209.

<sup>3</sup> صالح العليوي، الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني، ص 210.

- تُؤيِّ الجرجانيُّ رحمه الله سنة 471هـ<sup>1</sup>.

### ثانياً: إعجاز القرآن عند الجرجاني من خلال (دلائل الإعجاز)

لعبد القاهر الجرجاني رحمه الله ثلاثة كتب لها علاقة مباشرة بإعجاز القرآن؛ هي: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والرسالة الشافية؛ أمّا (أسرار البلاغة) ولعله أوّلها تصنيفاً من حيث الزمن<sup>2</sup>، فلم يرد فيه الكلام عن الإعجاز البتّة، وأمّا هو تفرّعات وتقاسيم، وتحليل لكلام البلغاء والشُعراء، ورفيع الكلام البشري على وجه العموم، توطئة للكلام عن إعجاز القرآن في (الدلائل)، وأمّا (دلائل الإعجاز)؛ فإنّه أبان فيه عن رأيه في الإعجاز؛ وأنّه بالنّظم، وأمّا (الرسالة الشافية)؛ فإنّه خصّصها للردّ على القائلين بالصرّفة.

ولعلنا في هذا المقام نقصّر الكلام على (دلائل الإعجاز)، فنقول:

### - الإعجاز في النّظم:

- أشهر شيء عرّف به الجرجانيُّ رحمه الله (مسألة النظم)، ومعنى (النّظم) على ما بيّن هو رحمه الله: «إنما هو توخّي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله»<sup>3</sup>.

ولا شك أنّ هذا التعلّق راجع إلى معاني الكلم، لا إلى ذوات ألفاظها. وهذه المعاني أيضاً، لا يتّضح تناسقها إلّا من خلال السياقات المختلفة التي ترد ضمنها، وهي وحدها التي تكشف ما فيها من تلاؤم وعدمه.

- ولذلك فإن الجرجاني رحمه الله لم يكن يرى المزية في الألفاظ المفردة، لا في معانيها، ولا في جرسها وصوتها، ولا في غير ذلك، إلّا أن تُنظم في تركيب يُؤدي معنى معيناً، ويشرّح ذلك بمثال فيقول: «وإن أردت مثلاً فخذ بيتَ بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا \* وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبهُ

وانظر هل يُنبوّر أن يكون بشار قد أحطّر معاني هذه الكلم بباله أفراداً عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأن) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكّر في "مثار النقع"، من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكّر في "فوق رؤوسنا"، من غير أن

<sup>1</sup> يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 264. و: الذهبي، السير، ج 18، ص 432. و: ابن شاکر، فوات الوفيات، ج 2، ص 369.

<sup>2</sup> وبذلك جزم الأستاذ محمد أبو موسى في شرحه على الكتاب؛ لأنّه بمثابة المقدّمة المنطقيّة للكلام عن الإعجاز.

<sup>3</sup> الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 452.

يكونَ قد أرادَ أن يُضيفَ "فوق" إلى "الرؤوس"، وفي "الأسياف" من دونِ أن يكونَ أرادَ عطفَها بالواو على "مثار"، وفي "الواو" من دونِ أن يكونَ أرادَ العطفَ بها، وأن يكونَ كذلكَ فكَرَّ في "اللَّيل" من دونِ أن يكونَ أرادَ أن يجعلَهُ خبراً "لكأن"، وفي "تَهاوى كَواكبِهِ" من دونِ أن يكونَ أرادَ أن يجعلَ "تَهاوى" فعلاً للكواكب، ثم يجعلَ الجملةَ صفةً "للَّيل" ليتمَّ الذي أرادَ من التشبيه؟ أم لم يخطر هذه الأشياءُ بباليه إلا مُراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي نراها فيها؟ وليت شعري، كيف يُتصوَّرُ وقوعُ قصدٍ منك إلى معنى كلمةٍ من دونِ أن تريدَ تعليقها بمعنى كلمةٍ أخرى؟<sup>1</sup>

ويستطردُّ في شرح بعض الأمثلة التي تبينُ رأيه، ثم يقول: «فقد أراك ذلك، إن لم تُكابرَ عقلَكَ، أنَّ النِّظْمَ» يكون في معاني الكَلِمِ دونَ ألفاظِها، وأنَّ نظْمَها هو تَوَجُّي معاني النحوِ فيها»<sup>2</sup>.

وفي هذا الصِّدَد يقول الدكتور إحسان عباس: «ما المقصود بالنِّظْم والتَّأليف، وهما مترادفان في رأي عبد القاهر؟ يقرّر الجرجاني أولاً، أنه ليس للفظه في ذاتها؛ لا في جرسها ولا دلالتها ميزة أو فضل أولي، وليس بين لفظه وأخرى في حال انفراد كلٍّ منهما عن الأخرى من تفاضل؛ لا يُحكم على اللفظة بأيِّ حكم قبل دخولها في (سياق) معيّن، لأنّها حينئذٍ - وحسب - تُرى في نطاق من التلاؤم أو عدم التلاؤم، وهذا السِّياق هو الذي يُحدث (تناسق الدلالة)، ويبرز فيه (معنى) على وجه يقتضيه العقل ويرتضيه. وربط الألفاظ في سياق، يكون وليد الفكر لا محالة، والفكر لا يضع لفظه إزاء الأخرى لأنه يرى في اللفظة نفسها ميزة فارقة، وإتّما يحكم بوضعها لأنّ لها معنى ودلالة بحسب السِّياق نفسه، ولهذا كانت (المعاني) لا الألفاظ، هي المقصودة في إحداث النِّظْم والتَّأليف؛ فلا نظم في الكلم ولا تأليف، حتّى يُعلّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وبهذا يكون اللفظ تابعا للمعنى، بحسب ما يتمّ ترتّب المعنى في النَّفس»<sup>3</sup>.

لذلك يقرّر الجرجاني في أواخر كتابه (الدلائل) جازماً: «أنّ طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن، إذا هو لم يطلبه في معاني النَّحو وأحكامه، ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنّها معدنه ومعانه، وموضعه ومكانه، وأنّه لا مُستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها، غارَّ نفسه بالكاذب من الطَّمع، ومُسلمٌ لها إلى الخدع، وأنّه إن أبي أن يكون فيها، كان قد أبي أن يكون القرآن معجزاً بنظمه»<sup>4</sup>.

1 الجرجاني، الدلائل، ص411-412.

2 الجرجاني، الدلائل، ص415.

3 إحسان عباس، تاريخ النِّقد الأدبي عند العرب، ص420.

4 الجرجاني، الدلائل، ص526.

- أمثلة تُقَرَّبُ قضيَّةَ النَّظْمِ عند الجُرْجَانِيِّ

- استهلَّ الجُرْجَانِيُّ رحمه الله تيسير هذه المسألة بأمثلة بسيطةٍ ليرتقي بعدها إلى أمثلة من القرآن الكريم، وممَّا ساقه في هذا قوله: «واعلم أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلامِ مَثَلُ مَنْ يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعضٍ حتى تصير قطعةً واحدةً. وذلك أنك إذا قلت: "ضرب زيدٌ عمراً يومَ الجمعةِ ضرباً شديداً تأديباً له"، فإنك تحصل من مجموع هذه الكَلِمِ كَلِّها على مفهومٍ، هو معنَى واحدٌ لا عدَّةٌ معانٍ، كما يتوهمه الناسُ. وذلك لأنك لم تأتِ بهذه الكَلِمِ لتُفِيدَهُ أنْفُسَ معانيها، وإنما جئتَ بها لتُفِيدَهُ وجوهَ التعلُّقِ التي بين الفعلِ الذي هو "ضرب"، وبينَ ما عملَ فيه، والأحكامَ التي هي محمولُ التعلُّقِ.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فينبغي لنا أن ننظرَ في المفعولية من "عمرو"، وكونِ "يوم الجمعة" زماناً للضرب، وكونِ "الضرب" ضرباً شديداً، وكونِ "التأديب" علةً للضرب، أيتصوَّرَ بها أن تُفَرِّدَ عن المعنى الأول الذي هو أصلُ الفائدةِ، وهو إسنادُ "ضرب" إلى "زيد"، وإثباتُ "الضرب" به له، حتى يُعَقَّلَ كونُ "عمرو" مفعولاً به، وكونِ "يوم الجمعة" مفعولاً فيه، وكونُ "ضرباً شديداً" مصدرًا، وكونُ "التأديب مفعولاً له" من غير أن يُخْطَرُ ببإلِّك كونُ "زيد" فاعلاً للضرب؟

وإذا نظرنا وجدنا ذلك لا يتصوَّر، لأن "عمراً" مفعولٌ لضرب وقعَ من "زيد" عليه، و "يوم الجمعة" زمانٌ لضربٍ وقعَ من زيد، و "ضرباً شديداً" بيانٌ لذلك الضربِ كيف هو وما صفتُه، و "التأديب" علة له وبيانٌ أنه كان الغرضُ منه. وإذا كان ذلك كذلك، بانَ منه وثبتت، أنَّ المفهومَ من مجموع الكَلِمِ معنَى واحدٌ لا عدَّةٌ معانٍ»<sup>1</sup>.

- ومن الأمثلة التي بيَّنَ بها الجُرْجَانِيُّ رحمه الله مزيَّةَ النَّظْمِ في القرآن الكريم:

- قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مریم:4]. قال رحمه الله: «ومن دقيق ذلك وحقيقه، أنك ترى الناسَ إذا ذكروا قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)، لم يزيدوا فيه على ذِكْرِ الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزيَّةِ مُوجباً سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرفُ العظيم ولا هذه المزيَّةُ الجليَّةُ، وهذه الرُّوعَةُ التي تدخلُ على النفوس عند هذا الكلامِ لمجردِ الاستعارة، ولكن لأنَّ سُلِّكَ بالكلامِ طريقٌ ما يسندُ الفعلُ فيه إلى الشيءِ وهو لما هو من سببِهِ، فيُرفَعُ به ما يُسندُ إليه، ويؤتى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أنَّ ذلك الإسنادَ وتلك النسبةُ إلى ذلك الأولِ، إمَّا كانا

<sup>1</sup> الجرجاني، الدلائل، ص412-413.

من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: "طاب زيدٌ نفساً"، و "قر عمرو عيناً"، و "تصبب عرفاً"، و "كرم أصلاً"، و "حسن وجهاً" وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه [...] .

فإن قلت: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البيئونة؟ فإن السبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذ من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يُعتد به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: "اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس"، بل لا يُوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة<sup>1</sup>.

- وقريب من هذا المثال، مما يتصل ب(التمييز المحوّل)؛ قوله تعالى: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) [القمر:12]، قال رحمه الله: «ونظير هذا في التنزيل قوله ﷺ: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا)، "التفجير" للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا، مثل الذي حصل هناك؛ وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عُيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل: "وفجّرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض"، لم يُفد ذلك ولم يُدلّ عليه، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض، وتبجس من أماكن منها»<sup>2</sup>.

- ومن الأمثلة على ذلك في باب (حذف المفعول) قوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) [القصص:23]، قال رحمه الله: «وإن أردت أن تزداد تبيناً لهذا الأصل، أعني وجوب أن تُسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب، فانظر إلى قوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)، فيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذا المعنى: "وجد عليه أمة من الناس يسقون" أغنامهم أو مواشيهم، و"امرأتين تذودان" غنمهما، و"قالتا لا نسقي" غنمنا، "فسقى لهما" غنمهما.

<sup>1</sup> الجرجاني، الدلائل، ص100-101.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص102.

ثم إنه لا يخفى على ذي بصير أنه ليس في ذلك كلفه إلا أن يُترك ذكره ويُؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنها قالتا: لا يكون منا سقي حتى يُصدِر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من عبد ذلك سقي، فأما ما كان المسقي؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافه. وذاك أنه لو قيل: "وجد من دونهن امرأتين تودان غنمهما"، جاز أن يكون لم يُنكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبلاً لم يُنكر الذود كما أنك إذا قلت: "ما لك تمنع أخاك؟"، كُنْتَ مُنْكَراً المنع، لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لِحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> الجرجاني، الدلائل، ص 161-162.

## المحاضرة السادسة: إعجاز القرآن عند الزمخشري (ت: 538هـ)

### المسألة الأولى: من هو الزمخشري؟

- هو: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
- العلامة، كبير المعتزلة، كان رأساً في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وله نظم جيد؛ منه قوله وهو يرثي أستاذة أبا مضر النحوي:

وقائلة: ما هذه الدرر التي \* تساقطها عينك سميطين سميطين؟

فقلت: هو الدر الذي قد حشا به \* أبو مضر أذني تساقط من عيني

- له مصنّفات كثيرة، منها: الكشاف في التفسير، وأساس البلاغة؛ معجم، والمفصل في النحو.
- توفي رحمه الله ليلة عرفة، سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة 538هـ<sup>1</sup>.

### المسألة الثانية: رأي الزمخشري في الإعجاز من خلال الكشاف

سنتناول هذه المسألة في نقاط كالاتي:

#### - القيمة العلمية لتفسير الكشاف وآراء العلماء فيه:

كلمات أهل العلم الماثورة عنهم في كتاب (الكشاف)، تكاد تجمع على أمرين اثنين: الأول أن فريد في بابيه في بيان بلاغة القرآن الكريم وإعجازه بياناً عملياً تطبيقياً. والآخر لزوم توحي الحذر من التأويلات الاعتزالية التي ضمّنها الزمخشري الكشاف. ومن أجلى النصوص في هذه المسألة كلام ابن خلدون رحمه الله (ت: 808هـ)، وهو يُورخ (لعلم البيان) قال: «وأحوج ما يكون إلى هذا الفنّ المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين عُقل عنه، حتى ظهر جار الله الزمخشري؛ ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفنّ، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير.

لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة، وشارك في هذا الفنّ بعض المشاركة، حتى يقتدر على الردّ عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضرّ في معتقده؛ فإنه يتعيّن

<sup>1</sup> يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 290. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص 168. و: الذهبي، السير، ج 20، ص 151. و: السيوطي، طبقات المفسرين، ص 120.

عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل»<sup>1</sup>.

وذلك ما تجد تأكيداً عند المعاصرين. يقول الأستاذ مصطفى مسلم: «ولولا أن الزمخشري شوه جمال تفسيره بمنازع المعتزلة أحياناً في تأويل بعض الآيات حسب أصولهم؛ لتبوأ تفسيره القمّة بين التفاسير البيانية»<sup>2</sup>.

#### - مسائل الإعجاز النظرية عند الزمخشري (التحدي، القدر المعجز، أوجه الإعجاز):

بما أنّ كتاب (الكشاف) كتاب تفسير بالأساس؛ فإنّ الزمخشري رحمه الله لم يتعرّض فيه لقضايا الإعجاز تعرّضاً نظرياً لمسائله الكلامية بمقدّماتها ونتائجها وتبويباتها؛ كما نجد عند الباقلاني رحمه الله مثلاً: (فصل في جملة وجوه الإعجاز، فصل في القدر المعجز، فصل في نفي الشعر عن القرآن...)، ولكنّه مع ذلك لم يخل من الإشارة إلى شيء منها، ومن ذلك:

- التحدي والمعارضة والقدر المعجز: وقد أوماً إلى هذه القضايا عرضاً في مُقدّمته للكشاف فقال: «قرآنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء»<sup>3</sup>.

- أوجه الإعجاز: على أنّ الزمخشري رحمه الله من رؤوس المعتزلة في زمانه، وكان يُجاهر بذلك ولا يُخفيه - كما هو معلوم من أخباره في ترجمته -؛ فإنّه لم يأخذ برأي أصحابه في قضية (الصرفة)، بل كان يرى وجه الإعجاز يتبدّى في شيئين اثنين هما: الإخبار بالغيوب، والنظم<sup>4</sup>.

- أمّا الإخبار بالغيوب؛ فإنّه كان يُشير إلى ذلك عند تفسير الآيات التي فيها ذكر لأخبار غيبية، ويُقرّر أنّ ذلك من الإعجاز، ومن ذلك:

<sup>1</sup> ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص 763.

<sup>2</sup> مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 54.

<sup>3</sup> الزمخشري، مقدمة الكشاف، ص 1.

<sup>4</sup> يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص 172-173.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:24]، فإنه قال في جملة ما قرّر من تفسيرها: «فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء؛ لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيّما والطاعنون فيه أكتف عددًا من الدّائين عنه، فحين لم يُنقل؛ عُلم أنه إخبار بالغيب على ما هو به؛ فكان معجزة»<sup>1</sup>.

ومنها أيضًا قوله: «وقوله ﴿حَلَّالٌ﴾: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: (وَلَنْ تَفْعَلُوا). فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، وكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب، إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا»<sup>2</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:20]، قال: «وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، (ولتكون آية للمؤمنين) إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا، لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية، ويزيدكم بذلك هداية وإيقاناً»<sup>3</sup>.

- وأما (النّظم)؛ فإنه يُقرّر في عدّة مواضع من (الكشاف) أنّ مدار الإعجاز عليه؛ ومن ذلك قوله: «النظم [...] هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهمّ ما يجب على المفسر»<sup>4</sup>. كما يقول في موضع آخر عن استنباط النكات البلاغية من القرآن: «وهذه الأسرار والنكت لا يُبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها»<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف، ج1، ص102.

<sup>2</sup> الزمخشري، الكشاف، ج1، ص167.

<sup>3</sup> الزمخشري، الكشاف، ج4، ص341.

<sup>4</sup> الزمخشري، الكشاف، ج3، ص63.

<sup>5</sup> الزمخشري، الكشاف، ج4، ص134.

والملاحظ عند كلام الزمخشري رحمه الله عن هذين الوجهين من أوجه الإعجاز، أنه لم يُفرد لهما الكلام نظرياً في مقدمة الكتاب على سبيل المثال، إنما كانت إشارته إليهما استطراداً كما ترى، عند تفسيره لآيات القرآن، واستخراج ما فيها من الصور الفنية والنكات البلاغية.

### - عمل الزمخشري في (الكشاف) تطبيق عملي لما نظّر الجرجاني في (الدلائل):

أبرز وجهي الإعجاز ظهوراً عند الزمخشري دون شك هو الوجه البلاغي، أو (النظم) كما سمّاه هو، وسمّاه من قبله الجرجاني، وجلّ الكاتبين في إعجاز القرآن الكريم، يجعلون من الزمخشري رحمه الله مُطَبِّقاً (نظريّة النظم) لعبد القاهر الجرجاني التي بثّها في كتابه (دلائل الإعجاز)، في كتابه هو في التفسير (الكشاف). يقول عبد الكريم الخطيب: «لم يُؤلف الزمخشري مؤلفاً خاصاً بالإعجاز، وإنما قام بمحاولة في هذا الباب، لم يسبقه إليها أحد، ولا نظنُّ أنه جاء من بعده من جرى معه في هذا الطريق، ذلك أنه أراد أن يُقيم أدلّة الإعجاز وشواهدهُ من آيات القرآن الكريم، وأن يجعل القرآن كلّهُ مجالاً للتأظرين في الإعجاز، والباحثين عن مواقعه في كتاب الله، ولهذا فقد جعل تفسيره المعروف باسم: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لتحقيق هذه الغاية التي جعلها كلّ همة وغايته، وهو ينظر في كتاب الله»<sup>1</sup>.

كما يؤكّد هذا مصطفى مسلم بقوله: «إلا أن الذي حاز قصب السبق في هذا المضمار، وجعل كتابه تطبيقاً عملياً لآرائه في الإعجاز البياني للقرآن الكريم هو الإمام الزمخشري من أبرز علماء المعتزلة [...] لم يؤلف الزمخشري مؤلفاً خاصاً بالإعجاز، إلا أنه سلك في تفسيره مسلكاً دقيقاً أبرز فيه وجوه إعجاز القرآن من خلال الأساليب البلاغية التي تبه عليها وهو يفسر الآيات القرآنية. وعلى الرغم من أنه لم يقف عند كل كلمة، إلا أنه يطيل الوقوف عند الآيات التي تكشف له وجوهاً من روائع البيان وعجيب النظم في تقديم كلمة على كلمة أو اختيار كلمة بدل كلمة أو حرف مكان حرف، ويتحدث عن كل ذلك بأسلوب الأديب الضليع والبلاغي الذوّاقة الذي يتذوّق جمال الكلام وأفانين القول»<sup>2</sup>.

ودعوى الأستاذين الخطيب ومسلم بأنّ الزمخشري لم يؤلف كتاباً خاصاً بالإعجاز، لعلّها تنتقض بما طبع منسوباً للزمخشري رحمه الله، وهي (إعجاز سورة الكوثر)؛ فإنّها رسالة خاصّة في الموضوع.

<sup>1</sup> الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 298.

<sup>2</sup> مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 53.

كما يقول الأستاذ فضل عباس رحمه الله (ت1432هـ=2011م): «لقد كان فضل الله عظيماً أن قيض مثل عبد القاهر يُدعُ في نظرية النظم، ولقد كان فضل الله عظيماً أن قيض لنا مثل الزمخشري يطبق هذه النظرية تطبيقاً عملياً تفصيلاً في تفسير كتاب الله تعالى (تفسير الكشاف). لقد كان الزمخشري بحق عالماً معيماً، وجهبداً أحوذياً، هضم نظرية عبد القاهر في النظم، واستثمرها استثماراً تاماً في تطبيقها على أي الذكر الحكيم، وظهر ذلك جلياً في الكشاف ..، بل زاد عليها كثيراً مما جادت به قريحته، وأنتجه فكره»<sup>1</sup>.

### - نماذج من تطبيقات الزمخشري لنظرية النظم على الآيات القرآنية:

لم يترك الزمخشري رحمه الله تقريباً باباً من أبواب البلاغة التي بنى عليها الجرجاني رحمه الله (نظرية النظم)؛ من قبيل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتذكير، والتأنيث والتذكير وغيرها، إلا وتناوله بالتطبيق العملي باستنباط ما هنالك من النكات البلاغية، بل وزاد على ذلك أموراً آخر مما تعلق بالمفردة القرآنية، وفيما يلي أمثلة على ذلك<sup>2</sup>:

1- استعمال اسم الإشارة: وقد بين في ذلك الغرض البلاغي من استعمال اسم الإشارة البعيد والقريب؛ فعند قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:32] على سبيل المثال، قال: «قالت: (فذلكنن)، ولم تقل (فهذا) وهو حاضر، رفعاً لمنزلته في الحُسن، واستحقاق أن يُحِبَّ ويُفْتَتَنَ به، وربناً بحاله، واستبعاداً لمحلّه»<sup>3</sup>. وفي مُقابل ذلك عند قوله ﷻ: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64]، قال: «(هذه): فيها ازدياء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة. يريد: ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها -؛ إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون»<sup>4</sup>.

2- استخدام الجملة الاسمية والفعلية: ومن ذلك ما ذكر عند قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان:33]، وكلامه عن السير في العدول عن الجملة الفعلية (يجزي والد) إلى الاسمية (مولود هو جار)؛ فقال: «فإن قلت: قوله (ولا مولود)»

<sup>1</sup> فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص83.

<sup>2</sup> يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص174 وما بعدها.

<sup>3</sup> الزمخشري، الكشاف، ج2، ص466-467.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ج3، ص463.

هُوَ جازٍ عَنِّ وَالِدِهِ شَيْئًا) وَارِدٌ عَلَى طَرِيقٍ مِنَ التَّوَكِيدِ لَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ مَا هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ؟ قُلْتُ: الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْأِسْمِيَّةَ أَكَدُ مِنَ الْفِعْلِيَّةِ، وَقَدْ انضَمَّ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: (هُوَ)، وَقَوْلُهُ: (مَوْلُودٌ)؛ وَالسَّبَبُ فِي مَجِيئِهِ عَلَى هَذَا السَّنَنِ: أَنَّ الْخَطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ وَعَلَيْتُهُمْ قُبُضَ آبَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى الدِّينِ الْجَاهِلِيِّ، فَأُرِيدَ حَسْمُ أَطْمَاعِهِمْ وَأَطْمَاعِ النَّاسِ فِيهِمْ؛ أَنْ يَنْفَعُوا آبَاءَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، وَأَنْ يُعْنُوا عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَلِذَلِكَ جِيءَ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْآكِدِ. وَمَعْنَى التَّوَكِيدِ فِي لَفْظِ (المَوْلُودِ): أَنْ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَوْ شَفَعَ لِلْأَبِ الْأَدْنَى الَّذِي وُلِدَ مِنْهُ، لَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُ، فَضَلًّا أَنْ يَشْفَعَ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنْ أَجْدَادِهِ، لِأَنَّ (الْوَلَدَ) يَقَعُ عَلَى الْوَلَدِ وَوَلَدِ الْوَلَدِ، بِخِلَافِ (المَوْلُودِ) فَإِنَّهُ لِمَنْ وُلِدَ مِنْكَ»<sup>1</sup>.

3- التقديم والتأخير: ومن ذلك كلامه في قوله تعالى: ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ (مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ) مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: 2]، قال رحمه الله: «فإن قلت: أي فرق بين قولك: (وظنوا أن [حصونهم تمنعهم]) أو ما نعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما ل(أن) وإسناد الجملة إليه، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزّة ومنعّة لا يُبَالَى معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في مُعَارَظَتِهِمْ، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن (حصونهم تمنعهم)»<sup>2</sup>.

4- التعريف والتشكيك: وتعرّض له في مواطن عديدة منها قوله ﴿لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاِعْيَةٌ﴾ [الحاقة: 12]، قال عندها: «فإن قلت: لم قيل: (أذن واعية)، على التوحيد والتشكيك؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يُبَالَى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين»<sup>3</sup>.

5- الحذف والإثبات: ومن جملته حذف (المفعول به) في مثل قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]. قال رحمه الله: «ومفعول (تعلمون) متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة. والتوبيخ فيه أكد، أي أنتم العرّافون المميزون. ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أندادا، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص 504.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ج 4، ص 499.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ج 4، ص 600.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ج 1، ص 96.

وهكذا في غيرها من الأساليب؛ كالإظهار والإضمار، والإلتفات، والإيجاز، والاستفهام، وغيرها من المباحث. وللمكانة الكبيرة التي تبوّأها عمل الجرجاني والزحشري في الإعجاز؛ فإنّ بعض الباحثين يرى أنّ الإبداع الحقيقي في الإعجاز وقف عندهما، وما عمل الذين جاؤوا من بعد إلاّ استفادة من عملهما. يقول الأستاذ فضل عباس رحمه الله (ت: 1432هـ=2011م): «ولعلنا لا نغالي ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إنّ الإبداع في قضايا الإعجاز وقف عند ما قرره عبد القاهر في نظريته، وطبقه الزحشري في كشفه، والذين جاؤوا من بعدهما لم يزيدوا شيئاً ذا بال، إنّما كان الذي ذكره شرحاً أو اختصاراً أو نقلاً، وقد تظهر عليه سمات التكلّف»<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 86.

## المحور الثالث:

# إعجاز القرآن عند أهل السنة

وفيه ثلاثُ مُحاضراتٍ:

- المحاضرة السابعة: إعجاز القرآن عند ابن قُتَيْبَةَ
- المحاضرة الثامنة: إعجاز القرآن عند الخطَّابِ
- المحاضرة التاسعة: إعجاز القرآن عند ابن تيمية

## المحاضرة السابعة: إعجاز القرآن عند ابن قتيبة رحمه الله (ت: 276هـ)

### المسألة الأولى: من هو ابن قتيبة؟

- هو: أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة.  
- العلامة، الكبير، ذو الفنون. من أعلام شيوخه: إسحاق بن راهويه وأبو حاتم السجستاني، ومن أعلام تلاميذه: ابنه القاضي؛ أحمد بن عبد الله، بديار مصر، وابن درستويه النحوي. قال الخطيب البغدادي: كان ثقةً ديناً فاضلاً. ولي قضاء الدينور، وكان رأساً في علم اللسان العربي، والأخبار، وأيام الناس.  
- له كثير من المصنفات، منها: تفسير غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار.

- مات أبو محمد بن قتيبة فجاءه، صاح صيحةً سمعت من بعد، ثم أغمى عليه، وكان أكل هريسةً، فأصاب حرارةً، فبقي إلى الظهر، ثم اضطرب ساعةً، ثم هدأ فما زال يتشهد إلى السحر، ومات رحمه الله، وذلك في شهر رجب، سنة ست وسبعين ومائتين (276هـ)<sup>1</sup>.

### المسألة الثانية: مجمل رأي ابن قتيبة رحمه الله في الإعجاز من خلال كتابه (تأويل مشكل القرآن)

الكلام عن الإعجاز عند ابن قتيبة رحمه الله، يندرج في (دور الإشارات)؛ لأنه ليس لابن قتيبة رحمه الله مؤلف خاص في (إعجاز القرآن الكريم)، وربما لهذا السبب أهمل ذكره من أرنخ للإعجاز القرآني من المعاصرين؛ كالخطيب في (الإعجاز في دراسات السابقين)، ونعيم الحمصي في (فكرة الإعجاز من البعثة إلى العصر الحاضر)، وجل كلامه في الإعجاز أو كله مستنبط من الإشارات التي بثها في مصنفاته، خاصة كتابه (تأويل مشكل القرآن)<sup>2</sup>. ولذلك سنحاول أن نلّم بجوانب الحديث عن الكتاب في النقاط الآتية:

### - أهمية الكتاب في البلاغة العربية بصفة عامة:

يرى بعض الباحثين أن: «ابن قتيبة حلقة وصل مهمة في تاريخ البحث البلاغي؛ لأنه يمثل مرحلة غفل عنها كثير من المؤرخين لنشأة البلاغة، إذ يُشيدون ببدايات الجاحظ، ويقفزون إلى جهد ابن المعتز، وإسهام

<sup>1</sup> يُنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج11، ص411. و: الففطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص143. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص42. و: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص296.

<sup>2</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص41. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص47.

ابن قتيبة يمثل مرحلة تجميع ما تفرّق عند الجاحظ، وتنظيم القضايا البلاغية وترتيبها وتبويبها، وإضافة قضايا مهمة، وربط ذلك كله بالدفاع عن القرآن الكريم<sup>1</sup>. ولعله في ذلك مستفيداً مما قرره الأستاذ السيد أحمد صقر، عند كلامه عن القضايا البلاغية في كتاب (تأويل مُشكل القرآن)، إذ يقول: «ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الكتاب، قيمة تاريخية كبيرة؛ لأنها ستضيف لمعارفنا عن تطوّر البلاغة شيئاً جديداً، فالشائع الذائع بين الخاصة وغيرهم: أنّ البلاغة العربية طفرت من نثار الجاحظ المبعوث في كتبه، إلى (بديع) ابن المعتز، طفرةً واحدة، ولم يعرف أحدٌ أنّ ابن قتيبة قد أسهم في تكوينها وتطورها بنصيبٍ موفور. فظهور تلك الأبواب في هذا الكتاب، يُظهرنا على تلك الحلقة المفقودة في تاريخ البلاغة، ويُضيف إلى أمجاد ابن قتيبة مجداً آخرَ عظيم الشأن، سيذكره الذاكرون، كلّما تحدّثوا عن تاريخ البلاغة ونشأتها. ولن يستطيع باحثٌ أن يُغفل صنع ابن قتيبة في استخراج ما في القرآن من أنواع المجاز، وتبويبها أبواباً مُفصّلة [...] قبل أن يُؤلّف ابن المعتز كتاب (البديع) في سنة أربع وسبعين ومائتين، بسنواتٍ وسنواتٍ»<sup>2</sup>.

على أنّ ممّا يُنبّه عليه في هذا المقام؛ أنّ لفظ (المجاز) عند ابن قتيبة، لا يزال يستخدم بالمعنى العام كما هو عند أبي عبيدة، أي أساليب العرب في كلامها وما تُجوّزه من وجوه مُحاطباتها، ولم يذهب إلى المعنى الاصطلاحي عند المتأخرين ولم يشر إليه في كلامه<sup>3</sup>.

#### - سبب تأليف الكتاب:

كتاب ابن قتيبة لم يُؤلّف ابتداءً لبيان قضية الإعجاز القرآني، وإنما كان دفاعاً وردّاً على الطّاعنين في القرآن بأنّه متناقضٌ مُختلفٌ فاسدٌ النّظم، وهو صنفٌ آخرٌ من التّأليف في هذا الميدان. وقد بين ابن قتيبة رحمه الله في صدر (تأويل مُشكل القرآن) سبب تأليف الكتاب، وهما: حماية قلوب الأغرار ممّا يُروّج له الملاحدة وأذناهم، من مطاعن في القرآن الكريم، والدّبّ عن كتاب الله وعبادته<sup>4</sup>. فقال رحمه الله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

<sup>1</sup> محمد بن علي الصامل، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، ص26.

<sup>2</sup> السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق (تأويل مُشكل القرآن)، ص82.

<sup>3</sup> يُنظر: فاضل النعيمي، مقال (إعجاز القرآن الكريم في مرحلة البناء والتأسيس - ابن قتيبة)، موقع جامعة بابل، تاريخ الإضافة:

2018/06/10.

<sup>4</sup> يُنظر: العيد حديق، جهود أهل السنة والجماعة في إعجاز القرآن الكريم، ص70-73.

تأويله) [آل عمران:7] بأفهام كلية، وأبصار عليّة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله.

ثم قضا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والاختلاف. وأذلوا في ذلك بعلم ربّما أمالت الضعيف العُمَر، والحَدَث العَرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور [...] فأحبت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون.

فألقت هذا الكتاب، جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح»<sup>1</sup>.

#### - أهمّ مضامين الكتاب:

- بالرغم من كون كتاب ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن) أُلّف للردّ على مطاعن بعض الملحدين في نظم القرآن، وذلك يقتضي كلامًا تطبيقيًا على الآيات التي تعرّضت للطعن؛ وهو ما نجد منه شيئًا غير قليل في الكتاب، إلا أنّنا لا نعدّم كذلك كلامًا عن بعض القضايا النظرية في الإعجاز، من قبيل وجه الإعجاز، والقدر المعجز، والتحدي والعجز عن المعارضة. يقول بعض الباحثين: «فإنّه لما أُلّف كتابه (تأويل مشكل القرآن)، صدره ببيان وجه الإعجاز القرآني، إضافة إلى بيانه لكثير من وجوه البلاغة في القرآن، فهو بمنّ تكلم في الإعجاز ولكنّه لم يُفرد بكتاب مستقل»<sup>2</sup>.

- وجه الإعجاز: وجه الإعجاز عند ابن قتيبة هو الوجه البلاغي، وقد أشار إليه في مقدّمة كتابه؛ وسماه: معجز تأليفه وعجيب نظمه. قال: «الحمد لله الذي نھج لنا سبل الرّشاد، وهدانا بنور الكتاب، (وَمَ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) [الكهف:1]، بل نزله قيما مفصّلا بينا (لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [فصلت:42] وشرّفه، وكرّمه، ورفع وعظّمه، وسماه روحا ورحمة، وشفاء وهدى، ونورا.

وقطع منه بمعجز التّأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلوًا لا يملّ على طول التّلاوة، ومسموعا لا تمجّه الأذان، وغضّا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه،

<sup>1</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص23.

<sup>2</sup> محمد العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ص102.

ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب. وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ: (أوتيت جوامع الكلم)»<sup>1</sup>.

- القدر المعجز والتحدّي والعجز عن المعارضة: وأشار إلى هذه القضايا عَرَضًا عند كلامه عن شبهات الطّاعنين في أسلوب القرآن الكريم، وأتمها لو صحّت لهم هذه الشُّبهات؛ لتعلّق بها مَنْ قبلهم من المشركين. قال: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تشابه منه ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) [آل عمران:7] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضاوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النّظم، والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيف الغمر، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور.

ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأويلهم؛ لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتج عليه بالقرآن، ويجعله العلم لثبوتّه، والدليل على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله. وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدد في الخصام، مع اللب والنهي، وأصالة الرّأي. وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرّة يقولون: هو سحر، ومرّة يقولون: هو قول الكهنة، ومرّة: أساطير الأولين. ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات، أنهم جذبوه من الجهة التي جذبته منها الطاعنون»<sup>2</sup>.

- مُعْجَزَةٌ كُلِّ نَبِيٍّ مِنْ جَنْسٍ مَا يُحْسِنُهُ قَوْمُهُ: قال رحمه الله: «وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنائها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله، لما أَرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علمه، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه:

فكان لموسى فلق البحر، واليد، والعصا، وتفجّر الحجر في التيه بالماء الرّواء، إلى سائر أعلامه زمن السّحر.

<sup>1</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص11.

<sup>2</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص23.

وكان لعيسى إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، إلى سائر أعلامه زمن الطب.

وكان لمحمد ﷺ الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، إلى سائر أعلامه زمن البيان<sup>1</sup>.

- وأما مسائل الكتاب التطبيقية؛ فإنها كثيرة، وهي غاية في النفاسة والفائدة، من قبيل: المجاز والاستعارة، والحذف والإختصار، والكناية والتعريض، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه وغيرها، ولكننا سننتقي من طعون الطاعنين وردّ ابن قتيبة عليهم في ثلاث مسائل هي: اختلاف القراءات، ودعوى التناقض في القرآن، ودعوى الإختلاف وفساد النظم. وبيأها كالاتي:

- الاختلاف في القراءات: قال ابن قتيبة رحمه الله (ت:276هـ) حاكياً عن الطاعنين: «وكان مما بلغنا عنهم؛ أنهم يحتجون بقوله **وَعَلَىٰ** (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء:82]، وبقوله: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) [فصلت:42]. وقالوا: وجدنا الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم، يختلفون في الحرف: فابن عباس يقرأ: (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّه) [يوسف:45]، وغيره يقرأ: (بَعْدَ أُمَّةٍ). وعائشة رضي الله عنها تقرأ: (إِذْ تَلَقُّونَهُ) [النور:15]، وغيرها يقرأ: (تَلَقُّونَهُ) [...] والقراء يختلفون: فهذا يرفع ما ينصبه ذاك، وذاك يخفض ما يرفعه هذا. وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين، فأبي شيء بعد هذا الاختلاف تريدون؟ وأي باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون؟»<sup>2</sup>.

ثم إنّه ردّ على هذه الشبهة بقوله: «فإن قال قائل: هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً، فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني؟ قيل له: الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضادّ. فاختلاف التضاد لا يجوز، ولست واجدهُ بحمد الله في شيء من القرآن، إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ. واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله: (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أي بعد حين، و(بَعْدَ أُمَّةٍ) أي بعد نسيان له، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان؛ لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين، وبعد نسيان له، فأنزل الله على لسان نبيه ﷺ بالمعنيين جميعاً في غرضين.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص17.

<sup>2</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص24.

وكقوله: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)، أي تقبلونه وتقولونه، و (تَلَقَّوْنَهُ) من الوَلَقِ، وهو الكذب، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان، لأنهم قبلوه وقالوه، وهو كذب، فأنزل الله على نبيه بالمعنيين جميعا في غرضين<sup>1</sup>.  
 - دعوى وجود التناقض في القرآن الكريم: «قالوا: وهل التناقض إلا مثل قوله: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن:39)، وهو يقول في موضع آخر: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر:92-93). [...]»

ومثل قوله: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الطور:25، والصفات:27). وهو يقول في موضع آخر: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون:101)<sup>2</sup>.

قال ابن قتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «فأما ما نحلوه من التناقض في مثل قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن:39). وهو يقول في موضع آخر: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر:92-93).

فالجواب في ذلك: أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى: (مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج:4)، ففي مثل هذا اليوم يسألون، وفيه لا يسألون؛ لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة؛ (انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) (الرحمن:37)، وانقطع الكلام وذهب الخصام، واسودت وجوه قوم، وابيضت وجوه آخرين، وعُرف الفريقان بسيماهم، وتطايرت الصحف من الأيدي، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة، وأخذ ذات الشمال إلى النار. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)، قال: هو موطن لا يسألون فيه. ومثله: (وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص:78)، وقوله: (لَا تَحْتَصِمُوا لَدَيْي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) (ق:28)<sup>3</sup>.

وحاصل هذا الكلام؛ أن يوم القيامة يوم طويل مقدارُه خمسون ألف سنةٍ مما يعدُّ النَّاسُ؛ وفيه مواقفٌ متعدِّدةٌ؛ فعند العرضِ على الله ﷻ يُوقَفُ كلُّ أحدٍ على عَمَلِهِ ويُسألُ عنه ويُحاسبُ، فإذا قُضِيَ الحسابُ؛ فلا يُسألُ حينها عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ.

وأما الموضع الثاني؛ فقد وجهه ابن قتيبة رحمه الله (ت:276هـ) بقوله: «وقوله: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الطور:25)، وهو يقول في موضع آخر: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون:101)،

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص33.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص33.

<sup>3</sup> ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص46.

فإنه إذا نفخ في الصور نفخة واحدة، تقطعت الأرحام، وبطلت الأنساب، وشغلوا بأنفسهم عن التسأل، و(فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) [الزمر:68]. فإذا نفخ فيه أخرى؛ قاموا ينظرون (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) [الصفات:27]، وقالوا: (مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) [يس:52]. وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه»<sup>1</sup>.

- دعوى فساد النظم القرآني: مما ذكره الطاعنون؛ «قالوا في قوله عَلَيْكُمْ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) [مريم:96]، هل يجوز أن يقال: فلان يجعل لك حَبًّا، أي يحبك؟ وفي قوله عَلَيْكُمْ: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) [النبأ:9]، والسُّبَاتُ هو: النوم، فكيف يجوز أن يجعل نومنا نومًا؟»<sup>2</sup>. وقد أجاب عن ذلك ابن قُتَيْبَةَ رحمه الله (ت:276هـ) بقوله: «وأما قوله عَلَيْكُمْ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) [مريم:96]، فإنه ليس على تأويلهم، وإنما أراد أنه يجعل لهم في قلوب العباد محبة.

فأنت ترى المخلص المجتهد مُحَبَّبًا إلى البرِّ والفاجر، مَهِيًّا مذكورًا بالجميل. ونحوه قول الله سبحانه في قصة موسى عليه السلام: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) [طه:39]، ولم يرد في هذا الموضع (أني أحببتك)، وإن كان يحبه، وإنما أراد أنه (حَبَّبَهُ إِلَى الْقُلُوبِ)، وقربه من النفوس، فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون، حتى استحياه في السنة التي كان يقتل فيها الولدان.

وأما قوله عَلَيْكُمْ: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) [النبأ:9]، فليس السُّبَاتُ هاهنا: النوم، فيكون معناه: وجعلنا نومكم نومًا؛ ولكنَّ السُّبَاتَ الراحة؛ أي جعلنا النوم راحة لأبدانكم. ومنه قيل: يوم السبت، لأن الخلق اجتمع في يوم الجمعة، وكان الفراغ منه يوم السبت، فقيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، ولا تعملوا شيئًا، فسمي

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص47. وعكس الإمام أحمد رحمه الله (ت:241هـ) التوجيه فقال: «وأما قوله: (فَلَا أُنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) [المؤمنون:101] وقال في آية أخرى: (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) [الصفات:50]. فقالوا: كيف يكون هذا من المحكم؟ فشكوا في القرآن من أجل ذلك.

فأما قوله عَلَيْكُمْ: (فَلَا أُنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)؛ فهذا عند النفخة الثانية، إذا قاموا من القبور، لا يتساءلون ولا ينطقون في ذلك الوطن، فإذا حوسبوا، ودخلوا الجنة والنار، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة «الرُّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّانِقَةِ»، ص64-65.

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله (ت:1393هـ=1973م) في (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) ثلاثة أوجه في تحريكها، تُنظر ص100.

<sup>2</sup> ابن قُتَيْبَةَ، تأويل مشكل القرآن، ص26.

يوم السبت، أي يوم الراحة. وأصل السبت: التمدد، ومن تمدد استراح. ومنه قيل: رجل مسبوت، ويقال: سبتت المرأة شعرها: إذا نقضته من العقص وأرسلته<sup>1</sup>.  
وبالجُملة؛ فإنَّ كتابَ (تأويل مُشكلِ القرآن) كتابٌ نافعٌ، ينبغي على كلِّ طالبٍ في الدِّراساتِ القرآنيَّةِ تحصيلُهُ واقتناؤُهُ.

---

<sup>1</sup> المصدرُ نفسه، ص54.

## المحاضرة الثامنة: إعجاز القرآن عند الخطابي رحمه الله (ت: 388هـ)

### المسألة الأولى: من هو الخطابي؟

- هو أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي.
- العلامة الحافظ اللعوي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً. قال عنه السمعاني صاحب (قواطع الأدلة): قد كان من العلم بمكان عظيم، وهو إمام من أئمة السنة، صالح للاقتداء به والصدور عنه. وقال القفطي: كان يشبهه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام؛ علماً وأدباً، وزهداً وورعاً، وتديساً وتأليفاً.
- له كثير من المؤلفات التي تدل على جلالته قدره، وعظيم انتفاع الناس به. نقل الذهبي عن أبي طاهر السلفي قوله: فإذا وقف منصف على مصنفاته، وأطلع على بدیع تصرفاته في مؤلفاته، تحققت إمامته وديانته فيما يورده وأمانته. قال الذهبي: وكان قد رحل في الحديث وقراءة العلوم، وطوف، ثم ألف في فنون من العلم، وصنف، وفي شيوخه كثرة، وكذلك في تصانيفه، منها (شرح السنن)، الذي عولنا على الشروع في إملائه وإلقائه، وكتابه في غريب الحديث، ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبيد ولا ابن قتيبة في كتابيهما، وهو كتاب تمتع مفيد، ومحصله بنية موفق سعيد.
- من مؤلفاته المطبوعة الموجودة: معالم السنن؛ شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، وبيان إعجاز القرآن.

كما أنه أديب له شعر جيد؛ منه قوله:

- \* وَمَا غَرَبَةَ الْإِنْسَانَ فِي شَقَّةِ النَّوَى
- \* وَلَكِنَّهَا وَاللَّهِ فِي عَدَمِ الشَّكْلِ
- \* وَإِنِّي غَرِيبٌ بَيْنَ بُسْتٍ وَأَهْلِهَا
- \* وَإِنْ كَانَ فِيهَا أُسْرَتِي وَبِمَا أَهْلِي
- \* وَمَنْهُ: فَسَامِحٌ وَلَا تَسْتَوْفِ حَقَّكَ كُلَّهُ
- \* وَأَبْقِ فَلَمْ يَسْتَوْفِ قَطُّ كَرِيمٌ
- \* وَلَا تَعْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ
- \* كِلَا طَرَيْقٍ قَصِدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ

- تُؤَيِّى الخطابي رحمه الله ببُست، في شهر ربيع الآخر، سنة ثمانٍ وثمانينٍ وثلاثمائةٍ 388هـ.
- والخطابي؛ نسبة إلى جده (الخطاب) المذكور، وقيل إنه من ذرية زيد بن الخطاب رضي الله عنه؛ فنسب إليه.

والبستي؛ هذه النسبة إلى بست، وهي مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة كثيرة الأشجار والأنهار<sup>1</sup>.

### المسألة الثانية: رأي الخطابي في الإعجاز من خلال كتابه (بيان إعجاز القرآن)

الكلام عن الإعجاز عند الخطابي رحمه الله يندرج في (دور الرسائل)؛ لأنه أُلّف في خصوصه رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والأمر يختلفُ عنده على ما كان عند ابن قتيبة رحمه الله؛ فإنه أُلّفها ابتداءً لبيان (إعجاز القرآن)، بدليل أنه استفتحها بقوله: «القول في بيان إعجاز القرآن»<sup>2</sup>.

وقد كان الخطابي أميناً في الكلام في الإعجاز؛ إذ أنه نسب الفضل إلى أهله، واعترف ابتداءً أن العلماء كتبوا قبله في هذا الميدان فأكثرُوا، فلم يدع أنه وحيدٌ دهره وفريد عصره كما فعل غيره<sup>3</sup>، ولكنّه مع ذلك يُقرّر أنّهم لم يأتوا بما يُزوي الغليل، ويشفي العليل، ما دفعه إلى تأليف (بيان إعجاز القرآن).

والكتاب، وإن لم يكن مُبَوَّباً أو مُقسِّماً؛ فإنه مُرتَّب الأفكار، تنساب الواحدة منها إثر الأخرى في تناسبٍ عقليٍّ مقبولٍ، ومضامين الكتاب تتركز على وجه الإجمال في سبعة أمورٍ هي: إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، وأوجه الإعجاز، والوجه المختار منها عند الخطابي رحمه الله، والاعتراضات على بلاغة القرآن وبيانه، والاعتراضات حول عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، ووجوه المعارضة الحقيقية، ووجه الإعجاز الذي انفرد به الخطابي رحمه الله<sup>4</sup>. وتفصيلها كالاتي:

#### 1- إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن: وفي هذا يقول: «وذلك أن النبي ﷺ قد تحدى العرب

قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله؛ فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرًا لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفهاً آراءهم وأحلامهم، حتى نبذوه وناصبوه الحرب؛ فهلكت فيه النفوس، وأريققت المهج، وقُطعت الأرحام، وذهبت الأموال. ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ولم يركبوا تلك الفواقير المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من

<sup>1</sup> يُنظر: القفطي، إنباه الرواة، ج1، ص160. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص214. و: الذهبي، السير، ج17، ص23. و: التاج السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج3، ص282.

<sup>2</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص21. ويُنظر: العيد حديق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني، ص73-74.

<sup>3</sup> يُنظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص21. و: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص27-28.

<sup>4</sup> يُنظر: أحمد السيد، مقاصد كتاب إعجاز القرآن للخطابي، مقطع يوتيوب.

الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون»<sup>1</sup>.

والذي يبدو جلياً في هذا المقطع؛ تأثر الخطابي رحمه الله بعبارات الجاحظ<sup>2</sup> التي كُنَّا سقنا أغلبها من قبل.  
**2- أوجه الإعجاز:** كما أسلفنا في التقديم لكتاب (بيان إعجاز القرآن)؛ أن الخطابي لم يغمط من تقدمه ممن تكلم في الإعجاز حقهم، فإنه لخص ما قيل قبله في الإعجاز وأبدى موقفه الصريح منها؛ ومجمل ما ذكر رحمه الله ثلاثة أوجه: وجه أبطله وردّه، ووجه ضعّفه ولم يردّه، ووجه ارتضاه وتبنّاه.

- أمّا الوجه الذي أبطله وردّه؛ فإنه القول بالصرفة. يقول في هذا الصدد: «وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها وغير معجزة عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات؛ صار كسائر المعجزات. فقالوا: ولو كان الله ﷻ بعث نبياً في زمان النبوات؛ وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهري قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال آيتي أن أحرّك يدي أو أمد رجلي، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم، فحرك يده أو مد رجله، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية دالة على صدقه. وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره، وإنما تُعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ناقضاً لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها. وهذا أيضاً وجه قريب، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)؛ فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم»<sup>3</sup>.

- وأمّا الوجه الذي ضعّفه ولم يردّه؛ فإنه الإخبار بالغيوب. قال رحمه الله: «وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه: (الم. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ)، وكقوله سبحانه: (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها.

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 22.

<sup>2</sup> يُنظر: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص 29-30.

<sup>3</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 22-23.

قلت: ولا يُشكُّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: (فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) من غير تعيين، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه<sup>1</sup>.

- وأما الوجه الذي ارتضاه ويبينه؛ فإنه البلاغة، ولكنّه نعى على القائلين بهذا الوجه أنهم أخذوا به على وجه من التسليم والتقليد، وأهم إذا سئلوا عن بيانه؛ صغوا فيه إلى حكم الذوق، وقالوا هو شيء يُدرُّ ولا يوصف. قال رحمه الله: «وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كیفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفاتحة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة؛ قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده»<sup>2</sup>.

**3- الوجه المختار عند الخطابي رحمه الله:** ذكرنا أن الوجه الذي ركن إليه الخطابي من الأوجه الثلاثة التي كانت مشتهرة قبله هو وجه البلاغة، ولأنه لم يرتض الأخذ به على وجه التقليد والتسليم؛ فقد حاول أن يتصدى هو لبيانه. يقول: «وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام [...] فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان؛ فإنه يقول»<sup>3</sup>. ثم يبدأ في بيان هذه البلاغة التي أصبح بها القرآن الكريم معجزاً، وحاصل كلامه أنه فسرها بأمرين اثنين: بلاغات القرآن الثلاث، والنظم.

- أما بلاغات القرآن الثلاث؛ فيتفرز أهما «متابينة غير متساوية؛ فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل [...] فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 23-24.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 24.

<sup>3</sup> لمصدر نفسه، ص 24-25.

الأقسام حصّة، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نوعهما كالمضادين؛ لأن العدوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه»<sup>1</sup>.

- وأما النظم؛ فإنّ كلام الخطابي رحمه الله فيه من أمتن النصوص التي أنت واجدُها في هذا الصّدّد، ولعلّ الجرجانيّ ومن جاء بعده ممّن دندن على قضية النظم؛ إنّما كان اعتماده على ما بنى الخطابيّ. قال رحمه الله: «إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن؛ وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني؛ فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نوعها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه؛ فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً. فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني؛ من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها»<sup>2</sup>.

**4- الاعتراضات على بلاغة القرآن وبيانه:** وفي هذا الجزء من الكتاب، سرد الخطابي رحمه الله عشرين آية من كتاب الله ﷻ ممثلاً بها على ما يُمكن أن يُطعن فيه من بلاغة القرآن الكريم، ومما أورده هنالك قوله: «فإن قيل: إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها؛ لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها، كقوله:

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص26.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص27.

(فأكله الذئب)، وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً (الافتراس)، يقال: افترسه السَّبُعُ، هذا هو المختار الفصيح في معناه، فأما (الأكل) فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع. وكقوله: (ذلك كيل يسير) قالوا: وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول: كِلت لزيد كيلاً يسيراً، إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية»<sup>1</sup>.

ثم لم يُجَلِّ المقام من ردِّ للشُّبهة وحلِّ للإشكال؛ فَكَّرَ عليها شبهةً شبهةً، يفنِّدُها واحدةً واحدةً. يقول رحمه الله: والجواب: أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تألوه، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه. فأما قوله تعالى: (فأكله الذئب)؛ فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بإهم بأثرٍ باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصحَّ على هذا أن يُعَبَّرَ عنه إلا بالأكل، على أن لفظ (الأكل) شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع [...]

وأما قوله سبحانه: (وزداد كيل بعير ذلك كيل يسير)؛ فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل، والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم: هذا درهمٌ ضربُ الأمير وهذا ثوبٌ نسجُ اليمين، أي مضروبُ الأمير ونسيجُ اليمين، والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبنا أخونا حمل بعير؛ فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام، فكان ذلك في السنين السبع القحطة، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده، ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله، ف قيل على هذا المعنى: (ذلك كيل يسير)، أي متيسر لنا إذا تسبينا إلى ذلك باستصحاب أخينا، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منها، ولذلك قيل: يُسِّرَ الرجل إذا نتجت مواشيه وكثر أولادها»<sup>2</sup>.

5- الاعتراضات حول عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن: وقد ساق ههنا بعض الشُّبهات على (عجز العرب) وردّها؛ ومن بينها: أنه قد يكون العرب عارضوا القرآن فعلاً ولكن ذلك لم يبلغنا. قال رحمه الله: «فإن قيل: ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه، ولكنه لم ينقل إلينا، وعُتِبَ عنا ذكره، وكُتِمَ الخبر فيه لما

<sup>1</sup> لمصدر نفسه، ص38.

<sup>2</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص40-42.

اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم، فانقطع رسمه واحى أثره؟ قيل: هذا سؤال ساقط؛ والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس خواصهم وعوامهم من نقل الأخبار، والتحدث بالأمور التي لها شأن، وبالنفوس تعلق، ولها فيها وقع، وكيف يجوز ذلك عليهم في مثل هذا الأمر العظيم، الذي قد انزعجت له القلوب، وسار ذكره بين الخافقين؟! ولو جاز ذلك في مثل هذا الشأن، مع عظيم خطره وجلالة قدره؛ لجاز أن يكون قد خرج في ذلك العصر نبي آخر، وأنبياء ذوو عددٍ، وتنزلت عليهم كتب من السماء، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة، وكتّم الخبر فيها فلم يظهر. وهذا ما لا يُتَوَهَّمُ أن يكون؛ لخروجه من سوم الطباع ومجاري العادات، فكذلك ما سألونا عنه»<sup>1</sup>.

**6- وجوه المعارضة الحقيقية:** وقد ذكر هذه القضية استطرادًا وهو يردُّ تفاهات مسيلمة الكذاب؛ من قبيل (ضفدع يا ضفدع) و(الفيل ما الفيل). يقول رحمه الله: «وأما قول الآخر: (الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل)، وقول صاحب (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى)، فإن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور آيه، وقصر معانيه؛ خالٍ من أوصاف المعارضات وشروطها، وإنما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن، واحتذاء لبعض أمثلة نظومه، وكألا لن يبلغوا شأوه أو يصيبوا في شيء من ذلك حذوه. وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر؛ أن ينشئ له كلامًا جديدًا، ويحدث له معنى بديعًا، فيجاريه في لفظه، ويباريه في معناه، ليوازن بين الكلامين؛ فيحكّم بالفلج لمن أبرّ منهما على صاحبه، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه، فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيق وتلفيق، ثم يزعم أن قد واقفه موقف المعارضين. وإنما المعارضة على أحد وجوه:

منها أن يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة، فيأتي كل واحد منهما بأمر محدث؛ من وصف ما تنازعا، وبيان ما تباريا فيه، يوازي بذلك صاحبه أو يزيد عليه، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما، بما يوجبه النظر من التساوي والتفاضل، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة، من وصف الفرس في قصيدتيهما المشهورتين»<sup>2</sup>.

**7- وجه الإعجاز الذي انفرد به الخطابي رحمه الله:** وأمّا المسألة التي ختم بها الخطابي رحمه الله كتابه الماتع (بيان إعجاز القرآن)؛ فهي ثمرة نظره الخاص في أوجه إعجاز القرآن، وهو ما سُمِّي من بعد: الإعجاز

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص55.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص57-58.

التأثيري أو الإعجاز النفسي. يقول في هذا الصدد: «قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمعَ خلصَ له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى؛ ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه؛ عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله؛ فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً»<sup>1</sup>.

ويضرب على ذلك أمثلة منها إسلام عمر رضي الله عنه، وقصة عتبة بن ربيعة لما أرسلته قريش لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم. وبالجملة؛ فإن كتاب الخطابي كتاب مركزي في درس الإعجاز؛ لا ينبغي لباحث في الدراسات القرآنية أن يغفل عنه.

<sup>1</sup> الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص70.

## المحاضرة التاسعة:

## إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: 728هـ)

تكلّمنا في المحاضرتين السابقتين عن إعجاز القرآن عند علمين من أعلام أهل السنة المتقدّمين، هما: ابن قتيبة (ت: 276هـ)، والخطّابي (ت: 388هـ) رحمهما الله، وهذه المحاضرة ختام المحور الثالث (إعجاز القرآن عند أهل السنة)، ونخصّصها للكلام عن إعجاز القرآن عند علم متأخّر نسبياً (من أهل المئة الثامنة الهجرية) من أعلام أهل السنة، هو: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: 728هـ)، وابن تيمية رحمه الله شخصيّة فذة، ثار حولها كثير من الجدل في حياته وبعد وفاته، إلى يوم الناس هذا؛ وسنحاول في المسألتين الآتيتين أن نستجلي: من هو ابن تيمية؟ وما هي جهوده في إعجاز القرآن الكريم؟

المسألة الأولى: من هو ابن تيمية<sup>1</sup>؟

- اسمه: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية، تقي الدين أبو العباس الحرّابي ثمّ الدمشقي. العالم البحر، سليل أسرة علمية عريقة؛ فأبوه العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم، وجده الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبو البركات عبد السلام.

- تلمذ لابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، وابن أبي الخير، وابن عطاء، وفخر الدين بن عساكر، وفخر الدين بن البخاري، وغيرهم. ومن أعلام تلاميذه: الذهبي وابن القيم وابن كثير وابن رجب وغيرهم. قال الذهبي رحمه الله: "نسخ وقرأ وانتقى، وبرع في علوم الآثار والسُنن، ودَرَسَ وأُفْتِيَ، وفسَّرَ وصنَّفَ التّصانيف البديعة، وانفرد بمسائل؛ فنبيل من عرضها لأجلها، وهو بشّر له ذنوبٌ وخطأ، ومع هذا فوالله ما مقلت عيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه. كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بقرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه.

<sup>1</sup> من أعظم الأعمال المعاصرة التي تناولت ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأحصت من ترجم له من العلماء؛ كتاب (الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون)، لمحمد عزيز شمس وعلي العمران، وقد أحصيا فيه خمساً وسبعين ترجمة (75) لشيخ الإسلام، ثمّ كمله علي العمران في (تكملة الجامع)، وأضاف إليها إحدى عشرة ترجمة (11)، فصار المجموع ستاً وثمانين ترجمة (86)، والكتابان مطبوعان متداولان.

ذكره أبو الفتح اليعمري في (جواب سؤالات أبي العباس ابن الدمياطي الحافظ) فقال: «أَلْفَيْتُهُ مِنْ أَدْرِكِ مِنَ الْعُلُومِ حِظًّا، وَكَادَ يَسْتَوْعِبُ السُّنْنَ وَالْآثَارَ حِفْظًا، إِنْ تَكَلَّمَ فِي التَّفْسِيرِ فَهُوَ حَامِلٌ رَأْيَيْهِ، أَوْ أَفْتَى فِي الْفِقْهِ فَهُوَ مُدْرِكٌ غَايَتِهِ، أَوْ ذَاكَرٌ بِالْحَدِيثِ فَهُوَ صَاحِبُ عِلْمِهِ وَذُو رِوَايَتِهِ، أَوْ حَاضِرٌ بِالنَّحْلِ وَالْمَلَلِ لَمْ يُرْ أَوْسَعُ مِنْ نَحْلَتِهِ وَلَا أَرْفَعُ مِنْ دِرَايَتِهِ، بَرَزَ فِي كُلِّ فَنٍّ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، لَمْ تَرَّ عَيْنِي مِثْلَهُ وَلَا رَأَتْ عَيْنُهُ مِثْلَ نَفْسِهِ»<sup>1</sup>.

- أمَّا مُؤَلَّفَاتِهِ؛ فَقَدْ بَلَغَتْ الْمِائَاتَ، حَتَّى أَنْ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ مُعَاصِرِيهِ، أَفْرَدَهَا بِالتَّصْنِيفِ؛ كَمَا صَنَعَ ابْنُ رُشَيْقٍ الْمَغْرِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: 749هـ) فِي كِتَابِهِ (أَسْمَاءُ مُؤَلَّفَاتِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ)<sup>2</sup>. وَمِنْهَا: دَرءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ، وَاقْتِضَاءُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مَخَالَفَةَ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ، وَمِنْهَا جِ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ، وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ لِمَنْ بَدَلَ دِينَ الْمَسِيحِ.

- تَوَفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَحْبُوسًا سَنَةَ (728هـ) فِي قَلْعَةِ دِمَشْقَ عَلَى مَسْأَلَةِ الزِّيَارَةِ، وَكَانَتْ جَنَازَتُهُ عَظِيمَةً إِلَى الْعَايَةِ. قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَكَثَ الشَّيْخُ فِي الْقَلْعَةِ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ إِلَى ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ثَمَانَ وَعِشْرِينَ، ثُمَّ مَرَضَ بَضْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَلَمْ يَعْلَمْ أَكْثَرَ النَّاسِ بِمَرَضِهِ، وَلَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا مَوْتُهُ. وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي سَحْرِ لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ ذِي الْقَعْدَةِ، سَنَةِ ثَمَانَ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةً"<sup>3</sup>. رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ.

### المسألة الثانية: معالم من جهود ابن تيمية في الإعجاز

ليس لابن تيمية رحمه الله مؤلف مستقل في الإعجاز، ولكن بعض الباحثين المعاصرين كفانا مؤنة تتبّع المادّة العلميّة المتعلقة بالإعجاز من مؤلفات الشيخ، وجمّعها في كتابٍ مُفْرَدٍ سَمَّاهُ: (إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني)، وهو الباحث: محمد بن عبد العزيز العواجي، والكتاب هو رسالته للماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية. وسننتقي منه بعض المسائل، ونقسمها قسمين: الأول ما تعلق بمسائل الإعجاز النظرية، والآخر ما له صلةً بجوانب الإعجاز البلاغي التطبيقية، وهذا إجمالاً تفصيله كالآتي:

<sup>1</sup> الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، ص 25-26.

<sup>2</sup> ذكر مؤلفا (الجامع لسيرة شيخ الإسلام)، أن هذا الكتاب نُشر منسوبًا إلى ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ وَهْمٌ مِنْ نَاشِرِهَا صَاحِبِ الدِّينِ الْمُنْجِدِ رَحِمَهُ اللَّهُ. يُنْظَرُ: الْجَامِعُ، ص 282.

<sup>3</sup> ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 4، ص 525.

**1- مسائل الإعجاز النظرية التي قاربها شيخ الإسلام ابن تيمية:** كثيرة نكتفي منها بالأربع التالية:  
القرآن آية صدق النبي ﷺ، والتحدي ما يتعلق به، وأوجه الإعجاز، والفرق بين إعجاز القرآن وإعجاز الكتب السماوية السابقة.

**- القرآن آية صدق النبي ﷺ:** ومما قاله في هذا الصدد: "والقرآن نفسه هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد ﷺ وإتيان محمد به هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله؛ إذ كان البشر لا يقدرُونَ على مثله، ولا يقدرُ عليه أحدٌ من الأنبياء، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم، كما قال تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: 88]. ومحمدٌ أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة (سبحان) وهي مكية. صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس. وقد أخبر خبراً وأكدته بالقسم عن جميع الثقليين - إنسهم وحيهم - أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته.

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون عنه. هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك؛ إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصد، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم؛ المؤمن بمحمد، والكافر به، على كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحدٌ بمثلها.

ثم جعله هذا في القرآن المثلِّ المحفوظ إلى يوم القيامة، الذي يُقرأ به في الصلوات، ويسمعه العام والخاص، والوليُّ والعدوُّ، دليلٌ على كمال ثقته بصدق هذا الخبر، وإلا لو كان شاكاً في ذلك لحاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذا لا يفعلُه من يصد أن يصدقه الناس، فمن يصد أن يصدقه الناس، لا يقول مثل هذا، ويظهره هذا الأظهار، ويُشيعه هذه الإشاعة، ويخلده هذا التخليد، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً، وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته

في أول الأمر عند من سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَمَرَ بِبَلَاغِهِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَهُوَ وَحْدَهُ كَافٍ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ<sup>1</sup>.

- التحدي ما يتعلق به: وهذه القضية أبدع فيها ابن تيمية رحمه الله، بدءًا بـ:

- تعريف (التحدي) الذي يقول فيه: "والتَّحْدِي هُوَ أَنْ يَحْدُوهُمْ: أَي يَدْعُوهُمْ فَيَبْعَثُهُمْ إِلَى أَنْ يُعَارِضُوهُ، فَيُقَالُ فِيهِ: حَدَانِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ: أَي بَعَثَنِي عَلَيْهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ حَدِي الْعَيْسِ؛ لِأَنَّهُ بِحَدَاهُ يَبْعَثُهَا عَلَى السَّبْرِ"<sup>2</sup>.

- ثم بالنزول في درجات التحدي، في مكة أولاً. قال رحمه الله: " قَالَ تَعَالَى: فِي سُورَةِ الطُّورِ: (أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)[الطور: 33] . فَهَذَا قَالَ: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)[الطور: 34] . فِي أَنَّهُ تَقْوَلُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَقْوَلَهُ كَمَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ، كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ جِنْسِهِ، فَأَمَكَنَ النَّاسَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ فَقَالَ تَعَالَى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[هود:13].

ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[يونس:37-38] فَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ هُمْ وَكُلُّ مَنْ اسْتَطَاعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ هُمْ وَمَنْ اسْتَطَاعُوا، قَالَ: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)[هود:14] .

وَهَذَا أَصْلُ دَعْوَتِهِ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالشَّهَادَةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَقَالَ تَعَالَى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)[هود: 14] كَمَا قَالَ: (لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ)[النساء: 166]. أَي: هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ، لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُفْتَرَى، كَمَا قَالَ: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)[يونس: 37]. أَي: مَا كَانَ لِأَنْ يُفْتَرَى، يَقُولُ: مَا كَانَ لِيُفْعَلَ هَذَا. فَلَمْ

<sup>1</sup> ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج5، ص408-410.

<sup>2</sup> ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج5، ص422.

يَنْفِ مُجَرَّدَ فِعْلِهِ، بَلْ نَفَى احْتِمَالَ فِعْلِهِ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَقَعُ، بَلْ يَمْتَنِعُ وَقُوعُهُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: مَا يُمَكِّنُ، وَلَا يُحْتَمَلُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفْتَرَى هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّ الَّذِي يَفْتَرِيهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا التَّحْدِي كَانَ بِمَكَّةَ، فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَ مَكِّيَّةٌ؛ سُورَةُ يُوسُفَ، وَهُودٍ، وَالطُّورِ<sup>1</sup>.

- ثم في المدينة كرر النبي ﷺ عليهم التحدي. قال ابن تيمية رحمه الله: " ثُمَّ أَعَادَ التَّحْدِي فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ فِي (الْبَقَرَةِ) وَهِيَ سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: 23]. ثُمَّ قَالَ: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) [البقرة: 24]. فَذَكَرَ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ) [البقرة: 24]، يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ حَقٌّ، فَخَافُوا اللَّهَ أَنْ تُكْذِبُوهُ، فَيَحْقِقَ بِكُمْ الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْمُكْذِبِينَ، وَهَذَا دُعَاءٌ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَهُوَ جِدَاهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَالثَّانِي قَوْلُهُ: (وَلَنْ تَفْعَلُوا) [البقرة: 24]. وَ(لَنْ) لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَتَبَتِ الْخَبْرُ أَنَّهُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ، لَا يَأْتُونَ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ كَمَا أَخْبَرَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ فِي سُورَةِ (سُبْحَانَ)، وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ الْإِسْرَاءِ، وَهُوَ كَانَ بِمَكَّةَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْخَبْرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَذَكَرَ فِيهَا مِنْ مُحَاطَبَتِهِ لِلْكَفَّارِ بِمَكَّةَ مَا يُبَيِّنُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قُلْ لَعِنَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: 88]. فَعَمَّ بِالْخَبْرِ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُعْجِزًا لَهُمْ، قَاطِعًا بِأَنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَوْ تَظَاهَرُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ذَلِكَ<sup>2</sup>.

- أوجه الإعجاز: أمّا أوجه الإعجاز؛ فابن تيمية لا يرى قصرها على وجهٍ أو وجوهٍ دون أخرى، بل كلُّ ما ذكر العلماء من وجوه إعجازه جائز القول به، لأن كلَّ قومٍ تنبهُوا لجانبٍ منها. قال رحمه الله: " وَكَوْنُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُعْجِزٌ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِهَةٍ فَصَاحَتِهِ وَبَلَغَتِهِ فَقَطُّ، أَوْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ صَرْفِ الدَّوَاعِي عَنِ مُعَارَضَتِهِ فَقَطُّ، وَلَا مِنْ جِهَةِ سَلْبِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ فَقَطُّ، بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنْ وَجْهِهِ مُتَعَدِّدَةٌ: مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّظْمِ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ فِي

<sup>1</sup> ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج5، ص423-425.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ج5، ص425-426.

دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ، الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، وَعَنِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْمَعَادِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا بَيَّنَّ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْأَقْيَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) [الإسراء: 89] [...].

وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ النَّاسُ مِنَ الْوُجُوهِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، هُوَ حُجَّةٌ عَلَى إِعْجَازِهِ، وَلَا تَنَاقُضَ فِي ذَلِكَ، بَلْ كُلُّ قَوْمٍ تَنَبَّهُوا لِمَا تَنَبَّهُوا لَهُ<sup>1</sup>.

- ومن الأوجه التي كان شيخ الإسلام من السباقيين إلى القول بها: الإعجاز العلمي والكوي<sup>2</sup>، وهو ما تكلم عنه رحمه الله من خلال آيات الآفاق والأنفس. قال: "وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْعَيَانِي؛ فَهُوَ أَنْ يُرَى الْعِبَادَ مِنْ الْآيَاتِ الْأَفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغْتَهُ الرَّسُلُ عَنْ اللَّهِ حَقٌّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَ مَا يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53]<sup>3</sup>. وقال في موضع آخر: "وَقَالَ ﷺ: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ). وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى: (أَمْ حُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِفُونَ)، وَهُوَ دَلِيلٌ يَعْلَمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَذَكِّرُهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَفِي مَنْ يَرَاهُ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ. فَيَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِنَّمَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) [...]. وَلَيْسَ جَعْلُ الْإِنْسَانِ نَبِيًّا بِأَعْظَمَ مِنْ جَعْلِهِ الْعَلَقَةَ إِنْسَانًا حَيًّا عَالِمًا نَاطِقًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا قَدْ عَلِمَ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ؛ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَالْقَادِرُ عَلَى الْمَبْدَأِ كَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَعَادِ؟ وَالْقَادِرُ عَلَى هَذَا التَّعْلِيمِ كَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَاكَ التَّعْلِيمِ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَا يُحِيطُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ"<sup>4</sup>.

- الفرق بين إعجاز القرآن وإعجاز الكتب السماوية السابقة: وحاصل كلامه رحمه الله في هذه المسألة؛ أن الكتب السماوية كلها معجزة من جهة المعاني والإخبار بالغيوب، ولكن القرآن الكريم يمتاز عنها

<sup>1</sup> ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج5، ص428-429.

<sup>2</sup> "اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز القرآن، يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان" فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج2، ص549.

<sup>3</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص189.

<sup>4</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج16، ص262-264..

بأنه معجزٌ من جهة اللفظ والنظم، وليست هي كذلك. قال رحمه الله: "والقرآن؛ مما يعلم الناس؛ عربهم وعجمهم أنه لم يُوجد له نظيرٌ، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعدده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية. وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية. كل ذلك لا يوجد له نظيرٌ في العالم.

وإذا قيل إنّ التوراة والإنجيل والزيور لم يُوجد لها نظيرٌ أيضاً، لم يضرتنا ذلك؛ فإننا قلنا: إنّ آيات الأنبياء لا تكون لغيرهم، وإن كانت لجنس الأنبياء؛ كالإخبار بغيب الله؛ فهذه آية يشتركون فيها، وكذلك إحياء الموتى قد كان آية لغير واحدٍ من الأنبياء غير المسيح؛ كما كان ذلك لموسى وغيره"<sup>1</sup>.

ثم قال: "وما أتى به محمد ﷺ من الآيات، فهو دليلٌ على إثبات جنس الأنبياء مطلقاً، وعلى نبوة كل من سُمي في القرآن، خصوصاً إذا كان هذا مما أخبر به محمد ﷺ عن الله، ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله. وحينئذٍ فإذا قُدِّر أنّ التوراة أو الإنجيل أو الزيور معجزٌ لما فيه من العلوم والإخبار عن الغيوب، والأمر والنهي ونحو ذلك، لم يُنزع في ذلك، بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم، وعلى نبوة من أخبروا بنبوته.

ومن قال: إنها ليست بمعجزة؛ فإنه أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم كالقرآن، فهذا ممكن، وهذا يرجع إلى أهل اللغة العبرانية.

وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الإخبار عن الغيوب، أو الأمر والنهي؛ فهذا لا ريب فيه، ومما يدل على أنّ كتب الأنبياء معجزة: أنّ فيها الإخبار بنبوة محمد ﷺ قبل أن يُبعث بمدة طويلة. وهذا لا يُمكن علمه بدون إعلام الله لهم"<sup>2</sup>.

## 2- نماذج من الإعجاز اللغوي والبلاغي التي تكلم عنها ابن تيمية: من أبرز وجوه الإعجاز التي قال

بها ابن تيمية رحمه الله - تبعاً لجماهير علماء الأمة -؛ الإعجاز البياني، وفيما يأتي نُبدّ منه:

- قوة اللفظ القرآني وأثرها في المعنى: وقد ذكر هذه المسألة رحمه الله، في أثناء الكلام عن زيادة

الأحرف؛ فقرر أن زيادة المبني لزيادة المعنى، وفي قضية ترتيب الحركات قوة وضعفاً.

<sup>1</sup> ابن تيمية، النبوات، ج1، ص516-517.

<sup>2</sup> ابن تيمية، النبوات، ج1، ص519.

قال رحمه الله: "وَلَا يَذْكُرُ فِيهِ لَفْظًا زَائِدًا إِلَّا لِمَعْنَى زَائِدٍ، وَإِنْ كَانَ فِي ضِمْنِ ذَلِكَ التَّوَكِيدِ، وَمَا يَجِيءُ مِنْ زِيَادَةِ اللَّفْظِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ) وَقَوْلِهِ: (عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) وَقَوْلِهِ (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فَالْمَعْنَى مَعَ هَذَا أَزِيدُ مِنَ الْمَعْنَى بِدُونِهِ. فزِيَادَةُ اللَّفْظِ لَزِيَادَةِ الْمَعْنَى، وَقُوَّةُ اللَّفْظِ لِقُوَّةِ الْمَعْنَى. وَالضَّمُّ أَقْوَى مِنَ الْكُسْرِ، وَالْكَسْرُ أَقْوَى مِنَ الْفَتْحِ، وَهَذَا يَفْطَعُ عَلَى الضَّمِّ لِمَا هُوَ أَقْوَى؛ مِثْلُ (الْكُرْهِ) وَ(الْكُرْهِ)، فَالْكُرْهُ هُوَ الشَّيْءُ الْمَكْرُوهُ كَقَوْلِهِ: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ)، وَالْكُرْهُ الْمَصْدَرُ، كَقَوْلِهِ: (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا). وَالشَّيْءُ الَّذِي فِي نَفْسِهِ مَكْرُوهٌ أَقْوَى مِنْ نَفْسِ كَرَاهَةِ الْكَارِهِ. وَكَذَلِكَ (الدَّبْحُ) وَ(الدَّبْحُ) فَالدَّبْحُ: الْمَذْبُوحُ كَقَوْلِهِ: (وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ) وَالدَّبْحُ: الْفِعْلُ. وَالدَّبْحُ مَذْبُوحٌ، وَهُوَ جَسَدٌ يُذْبَحُ، فَهُوَ أَكْمَلُ مِنْ نَفْسِ الْفِعْلِ"<sup>1</sup>.

- كما قال في مسألة التضمين: "تَحْرِيرُ هَذَا الْبَابِ هُوَ مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الْإِنْسَانُ بَعْضَ قَدَرِ الْقُرْآنِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ لَفْظٌ إِلَّا مَقْرُونٌ بِمَا يُبَيِّنُ بِهِ الْمُرَادَ. وَمَنْ غَلَطَ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ فَمِنْ قُصُورِهِ أَوْ تَقْصِيرِهِ؛ فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: (يَشْرَبُ بِهَا) أَنَّ الْبَاءَ زَائِدَةٌ؛ كَانَ مِنْ قِلَّةِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الشَّارِبَ قَدْ يَشْرَبُ وَلَا يُرْوَى، فَإِذَا قِيلَ: يَشْرَبُ مِنْهَا: لَمْ يَدُلَّ عَلَى الرَّيِّ، وَإِذَا ضُمِّنَ مَعْنَى الرَّيِّ فَقِيلَ: (يَشْرَبُ بِهَا) كَانَ دَلِيلًا عَلَى الشُّرْبِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الرَّيُّ، وَهَذَا شُرْبٌ خَاصٌّ دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْبَاءِ، كَمَا دَلَّ لَفْظُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) عَلَى الْإِصَاقِ الْمَمْسُوحِ بِهِ بِالْعَضْوِ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ مَسْحَ الْوَجْهِ. فَمَنْ قَالَ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ جَعَلَ الْمَعْنَى امْسَحُوا وَجُوهَكُمْ وَلَيْسَ فِي مُجَرَّدِ مَسْحِ الْوَجْهِ الْإِصَاقُ الْمَمْسُوحِ بِهِ مِنَ الْمَاءِ وَالصَّعِيدِ"<sup>2</sup>.

- تَكَرُّرُ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ: وَقَدْ ذَكَرَ الْحِكْمَةَ مِنْ تَكَرُّرِ بَعْضِ قِصَصِ الْقُرْآنِ عِنْدَ ذِكْرِ لِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون. قال رحمه الله: "وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ يُبَيِّنُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا مِنْ الْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ نَوْعًا غَيْرَ النَّوعِ الْآخَرَ كَمَا يُسَمَّى اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكِتَابُهُ بِأَسْمَاءٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْاسْمُ الْآخَرُ وَلَيْسَ فِي هَذَا تَكَرُّرٌ بَلْ فِيهِ تَنْوِيعٌ الْآيَاتِ.

مِثْلَ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قِيلَ: مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْحَاشِرُ وَالْعَاقِبُ وَالْمُقَفَّى وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ؛ فِي كُلِّ اسْمٍ دَلَالَةٌ عَلَى مَعْنَى لَيْسَ فِي الْاسْمِ الْآخَرَ، وَإِنْ كَانَتْ الدَّاتُ وَاحِدَةً فَالصِّفَاتُ مُتَنَوِّعَةٌ.

<sup>1</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج16، ص537-538.

<sup>2</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج20، ص474.

وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ إِذَا قِيلَ فِيهِ: قُرْآنٌ وَفُرْقَانٌ وَبَيَانٌ وَهُدًى وَبَصَائِرٌ وَشِفَاءٌ وَنُورٌ وَرَحْمَةٌ وَرُوحٌ؛ فَكُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى لَيْسَ هُوَ الْمَعْنَى الْآخَرَ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الرَّبِّ تَعَالَى إِذَا قِيلَ: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ؛ فَكُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى لَيْسَ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الْاسْمِ الْآخَرَ، فَالذَّاتُ وَاحِدَةٌ وَالصِّفَاتُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَهَذَا فِي الْأَسْمَاءِ الْمُفْرَدَةِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْجُمَلِ التَّامَةِ؛ يُعَبَّرُ عَنِ الْقِصَّةِ بِجُمَلٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ فِيهَا، ثُمَّ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِجُمَلٍ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ أُخْرَى، وَإِنْ كَانَتْ الْقِصَّةُ الْمَذْكُورَةُ ذَاتَهَا وَاحِدَةً؛ فَصِفَاتُهَا مُتَعَدِّدَةٌ، فَفِي كُلِّ جُمَلَةٍ مِنْ الْجُمَلِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْجُمَلِ الْآخَرَ.

وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ تَكَرُّارٌ أَصْلًا، وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ كَرَّرَ الْقِصَصَ مَعَ إِمْكَانِ الْإِكْتِفَاءِ بِالْوَحْدَةِ وَكَانَ الْحِكْمَةُ فِيهِ: أَنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُقْرَأُ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَافِيًا، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِالسُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْآيَاتُ وَالْقِصَصُ مُثْنَاءً مُتَكَرِّرَةً؛ لَوْفَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ نُوحٍ إِلَى قَوْمٍ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُشَهِّرَ هَذِهِ الْقِصَصَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ، وَأَنْ يُلْقِيَهَا إِلَى كُلِّ سَمْعٍ. فَهَذَا كَلَامٌ مَنْ لَمْ يُقَدِّرِ الْقُرْآنَ قَدْرَهُ<sup>1</sup>.

- لا ترادف بين كلمات القرآن وحروفه: ومما قرره في هذا الصدد أن: "التَّرَادُفُ فِي اللَّعْنَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي الْأَفْظِ الْقُرْآنِ؛ فِيمَا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) إِنَّ الْمَوْرَ هُوَ الْحَرَكَةُ، كَانَ تَقْرِيبًا؛ إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ. وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: (الْوَحْيِ) الْإِعْلَامُ، أَوْ قِيلَ: (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، أَوْ قِيلَ: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) أَيِ أَعْلَمْنَا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَهَذَا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ؛ فَإِنَّ الْوَحْيَ هُوَ إِعْلَامٌ سَرِيعٌ خَفِيفٌ، وَالْقَضَاءُ إِلَيْهِمْ أَحْصُ مِنَ الْإِعْلَامِ، فَإِنَّ فِيهِ أَنْزَالَ إِلَيْهِمْ وَإِجَاءَ إِلَيْهِمْ [...]

وَمَنْ قَالَ (لَا رَيْبَ) لَا شَكَّ؛ فَهَذَا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: (دَعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ) وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ: (مَرَّ بِظَنِي حَاقِفٍ فَقَالَ: لَا يَرِيْبُهُ أَحَدٌ)، فَكَمَا أَنَّ الْيَقِينَ ضَمَّنَ السُّكُونَ

<sup>1</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج19، ص167-169.

وَالطَّمَأْنِينَةَ؛ فَالرَّيْبُ ضِدُّهُ، ضَمَّنَ الاضْطِرَابَ وَالْحَرَكَةَ. وَلَفْظُ (الشَّكِّ)، وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَى؛ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) هَذَا الْقُرْآنُ؛ فَهَذَا تَقْرِيْبٌ، لِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا؛ فَالْإِشَارَةُ بِجِهَةِ الْحُضُورِ غَيْرُ الْإِشَارَةِ بِجِهَةِ الْبُعْدِ وَالْغَيْبَةِ، وَلَفْظُ (الْكِتَابِ) يَتَضَمَّنُ مِنْ كَوْنِهِ مَكْتُوبًا مَضْمُومًا مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ الْقُرْآنِ مِنْ كَوْنِهِ مَقْرُوءًا مُظْهِرًا بَادِيًا، فَهَذِهِ الْفُرُوقُ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ<sup>1</sup>.

- التناسب البياني بين آيات القرآن الكريم وسوره: رغم كون القرآن الكريم نزل منجما على الوقائع والأحداث، وعلى مدة زمنية متطاولة امتدت ثلاثاً وعشرين سنة؛ إلا أنه متناسب السور والآيات والمواضيع، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أمثلة على هذه المسألة.

- فمما قاله في تناسب آياته؛ تتبعه لموضوع الحج في سورة البقرة. قال رحمه الله: "فَتَدَبَّرَ تَنَاسُبَ الْقُرْآنِ وَاتِّبَاطَ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَكَيْفَ ذَكَرَ أَحْكَامَ الْحَجِّ فِيهَا فِي مَوْضِعَيْنِ: مَعَ ذِكْرِ بَيْتِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَكَانِهِ وَمَوْضِعِ ذِكْرِ فِيهِ الْأَهْلَةِ فَذَكَرَ مَا يَتَعَلَّقُ بِزَمَانِهِ وَذَكَرَ أَيْضًا الْقِتَالَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمُقَاصَّةَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَانِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَكَانِ؛ وَهَذَا قَرَنَ سُبْحَانَهُ ذِكْرَ كَوْنِ الْأَهْلَةِ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ. وَذَكَرَ أَنَّ (الْبِرَّ) لَيْسَ أَنْ يُشْفِيَ الرَّجُلَ نَفْسَهُ وَيَفْعَلَ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنْ كَوْنِهِ يَبْرُؤُ لِلسَّمَاءِ فَلَا يَسْتَنْظِلُ بِسَقْفِ بَيْتِهِ حَتَّى إِذَا أَرَادَ دُخُولَ بَيْتِهِ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا مِنْ ظَهْرِهِ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْهَيْلَالَ الَّذِي جُعِلَ مِيقَاتًا لِلْحَجِّ لَمْ يَشْرَعْ لِمِثْلِ هَذَا؛ وَإِنَّمَا تَضَمَّنَ شَرَعَ التَّقْوَى. ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ النِّكَاحِ وَالْوَالِدَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمْوَالِ وَالصَّدَقَاتِ وَالرِّبَا وَالدُّيُونِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ حَتَمَهَا بِالدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الْمُتَضَمِّنِ وَضَعِ الْأَصَارِ وَالْأَعْلَالِ وَالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَطَلَبَ النَّصْرِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ مَا شَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"<sup>2</sup>.

- وأما في تناسب السور؛ فيقول رحمه الله: "السُّورُ الْقِصَارُ فِي أَوَاخِرِ الْمُصْحَفِ مُنَاسِبَةٌ. فَسُورَةُ (اقْرَأْ) هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ وَهَذَا أُفْتُتِحَتْ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ، وَخُتِمَتْ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ، وَوَسَّطَتْ بِالصَّلَاةِ الَّتِي أَفْضَلُ أَقْوَاهَا وَأَوْلَاهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ هُوَ الْقِرَاءَةُ، وَأَفْضَلُ أَفْعَالِهَا وَآخِرُهَا قَبْلَ التَّحْلِيلِ هُوَ السُّجُودُ؛ وَهَذَا لَمَّا أَمَرَ بِأَنْ يَقْرَأَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَهَا الْمُدَّتُّرَ لِأَجْلِ التَّبْلِيغِ فَقِيلَ لَهُ: (فَمُ فَانْدِرْ)، فَبِالْأَوَّلَى صَارَ نَبِيًّا، وَبِالثَّانِيَةِ صَارَ

<sup>1</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج13، ص341-343.

<sup>2</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص46-47.

رَسُولًا؛ وَهَذَا حُوطَبَ بِالْمُتَدَثِّرِ وَهُوَ الْمُتَدَقِّقُ مِنْ بَرْدِ الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ الْحَاصِلِ بِعِظْمَةِ مَا دَهَمَهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى حَدِيحَةِ تَرْجُفِ بَوَادِرِهِ وَقَالَ دَثْرُونِي دَثْرُونِي فَكَأَنَّهُ نَهَى عَنِ الْإِسْتِدْفَاءِ وَأَمَرَ بِالْقِيَامِ لِلْإِنْدَارِ، كَمَا حُوطَبَ فِي (الْمُزْمَلِ) وَهُوَ الْمُتَلَقِّفُ لِلنَّوْمِ لَمَّا أَمَرَ بِالْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَمَّا أَمَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْقِرَاءَةِ؛ ذَكَرَ فِي الَّتِي تَلِيهَا نُزُولَ الْقُرْآنِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَذَكَرَ فِيهَا تَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، وَفِي (الْمَعَارِجِ) عُرُوجَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، وَفِي (النَّبَأِ) قِيَامَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، فَذَكَرَ الصُّعُودَ وَالنُّزُولَ وَالْقِيَامَ.

ثُمَّ فِي الَّتِي تَلِيهَا تِلَاوَتُهُ عَلَى الْمُنْذَرِينَ حَيْثُ قَالَ: (يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ). فهذه السُّورَةُ الثَّلَاثُ مُنْتَظِمَةٌ لِلْقُرْآنِ؛ أَمْرًا بِهِ، وَذِكْرًا لِنُزُولِهِ، وَتِلَاوَةَ الرَّسُولِ لَهُ عَلَى الْمُنْذَرِينَ.

ثُمَّ سُورَةُ (الزَّلْزَلَةِ) و(الْعَادِيَّاتِ) و(الْقَارِعَةِ) و(التَّكْوِينِ) مُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قِيلَ هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ.

ثُمَّ سُورَةُ (الْعَصْرِ) و(الْهُمَزَةِ) و(الْفِيلِ) و(لَايْلَاقِ) و(أَرَأَيْتَ) و(الْكَوْثَرِ) و(الْكَافِرُونَ) و(النَّصْرِ) و(تَبَّتْ)؛ مُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ الْأَعْمَالِ؛ حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا، وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ سُورَةٍ حَاصَّةٌ.

وَأَمَّا سُورَةُ (الإِخْلَاصِ) و(المُعَوِّذَاتِ)؛ فَفِي الإِخْلَاصِ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَفِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ دُعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ لِيُعِيذَهُ، وَالثَّنَاءُ مَقْرُونٌ بِالْدُعَاءِ، كَمَا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي أَمِّ الْقُرْآنِ الْمُقْسُومَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ لِلرَّبِّ وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ لِلْعَبْدِ، وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ؛ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ الْإِيمَانُ بِمَقْصُودِ ذَلِكَ وَغَايَتِهِ، وَهُوَ مَا يَنْتَهِي الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ، ثُمَّ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ الْمَقْصُودِ وَسَبَبُهُ، وَهُوَ الْأَعْمَالُ: حَيْرُهَا لِيَفْعَلَ وَشَرُّهَا لِيَنْتَرِكَ.

ثُمَّ حَتَمَ الْمُصْحَفَ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ وَدُعَاؤُهُ، كَمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ أُمَّ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ هُوَ الْمُنْطِقُ، وَالْمُنْطِقُ قِسْمَانِ: حَبْرٌ وَإِنشَاءٌ، وَأَفْضَلُ الْحَبْرِ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا كَانَ حَبْرًا عَنِ اللَّهِ؛ كِنِصْفِ الْفَاتِحَةِ وَسُورَةِ الإِخْلَاصِ، وَأَفْضَلُ الْإِنشَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ، وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا كَانَ طَلَبًا مِنَ اللَّهِ؛ كَالنِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ<sup>1</sup>.

وفيما ذكرنا إشارات فقط إلى شيء من مباحث الإعجاز التي تكلم عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإلا فال مجال واسع، لا يتسع المقام للإلمام به.

<sup>1</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج16، ص 477-479.

# المحور الرابع: إعجاز القرآن عند المُحدّثين

وفيه ثلاث محاضرات:

- المحاضرة العاشرة: إعجازُ القرآن عند الرافعي
- المحاضرة الحادية عشر: إعجاز القرآن عند محمد عبد الله

دراز

- المحاضرة الثانية عشر: إعجازُ القرآن عند عائشة عبد الرحمن

## المحاضرة العاشرة: إعجاز القرآن عند الرافعي رحمه الله

(ت: 1356هـ = 1937م)

### المسألة الأولى: من هو الرافعي رحمه الله؟

- هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي؛ عالم بالأدب وشاعر ومن كبار الكتّاب<sup>1</sup>، سوري الأصل، مصري المولد، إسلامي الوطن<sup>2</sup>.
- لم يتلقَّ الرافعي رحمه الله من التعليم إلا المرحلة الابتدائية؛ ثم إنه أُصيب بمرضٍ أثر على أذنيه، ولا يزال يتزايد به حتى فقد سمعه تمامًا في الثلاثين من عمره، ومع ذلك فقد كان من أصحاب الإرادة الحازمة القوية، فلم يعبأ بالعقبات، وإنما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد، وتعلم على يد والده.
- له معارك أدبية طويلة مع أدباء عصره؛ أشهرها التي بينه وبين طه حسين حول الشعر الجاهلي، والتي سجلها في كتابه (تحت راية القرآن)، وبينه وبين عباس محمود العقاد؛ والتي سجلها في كتابه (على السفود).
- ترك مؤلفات عديدة قاربت العشرين، منها: ديوان شعر في ثلاثة أجزاء، وتاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء كذلك، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو يمثل الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب.
- توفي رحمه الله فجأة في 10 ماي 1937م = 1356هـ، ودُفن بطنطا بجوار والديه<sup>3</sup>.

### المسألة الثانية: جهود الرافعي رحمه الله في الإعجاز القرآني

للرافعي رحمه الله في خصوص قضية الإعجاز كتابٌ مُستقلٌ سمّاه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وهو يمثل في الأصل - كما أشرنا -؛ الجزء الثاني من كتابه الكبير (تاريخ آداب العرب)، ويُعدُّ كتاب الرافعي في الإعجاز من أوائل ما كتب في هذا العصر، بعد قرونٍ متطاولةٍ لم يُكتب فيه شيءٌ من وقت السيوطي رحمه الله (ت: 911هـ)، وفي هذا يقول عبد الكريم الخطيب وفقه الله: "رحم الله (مصطفى صادق الرافعي)، لقد كان من أول من دخل هذه الحلبة من أبناء هذا العصر، وأفسح له مكاناً مع رجالها من علماء السلف في

<sup>1</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، ج7، ص234-235.

<sup>2</sup> يُنظر: سعيد العريان، حياة الرافعي، ص17.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص250-251.

هذه الأمة؛ فلقد كادت هذه السلسلة تنقطع، وكاد العصر ينقضي دون أن يقوم فيه رجلٌ يحمل الراية في هذا الميدان، ويؤدي للقرآن حقه الذي له على كل جيلٍ من أجيال المسلمين.

إن الذين كتبوا في إعجاز القرآن كتابةً متخصصةً قلَّةً معدودةً، وأغلب هؤلاء نفر القليل؛ كان يدخل الميدان خائفًا، يُقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى، تهيئاً للموقف المهيب، وتخوفاً من التقصير عن الوفاء بحق هذا المقام الكريم، وكان آخر من دخل هذه الحلبة هو (جلال الدين السيوطي) رحمه الله، وكان ناقلاً أكثر منه باحثًا مؤسسًا، وهو على أيٍّ؛ محمودٌ مقدورٌ.

وجاء الراجعي، فكان مقدمًا جريئًا، يحمل قلب مؤمنٍ وعقل عالمٍ وقلم أديب، وبهذه القوى؛ استطاع أن يثبت أقدامه، وأن يحفظ توازنه، وأن يمد يدًا ثابتةً إلى مجآني القرآن فيقطف من ثمراته شيئًا موفورًا، يقدمه للدارسين لكتاب الله، وللمتوسمين في آياته<sup>1</sup>.

ولذلك سيكون كلامنا عن الإعجاز عنده - رحمه الله - من خلال ذلك الكتاب، وسنحاول أن نُجمل حديثه فيه في هذه المسائل الأربع: الأولى؛ معنى الإعجاز عند الراجعي رحمه الله، والثانية؛ الأقوال في الإعجاز، والثالثة؛ تاريخ التأليف في الإعجاز، ثمَّ الرابعة؛ رأيه في القضية. وهذا إجمال، تفصيله كالاتي:

### 1- معنى الإعجاز عند الراجعي رحمه الله:

يرى الراجعي رحمه الله أن الإعجاز شئتان: ضعف القدرة البشرية عن معارضة القرآن رغم توافر الدواعي، ثم استمرار هذا العجز عن المعارضة على تطاول الأزمان. يقول رحمه الله: "إنما الإعجاز شئتان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه؛ فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد، ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت؛ فيصير من الأمر المعجز إلى ما يشبهه في الرأي مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله. فإن المعمر دهر صغير، وإن لكليهما مدة في العمر هي من جنس الأخرى؛ غير أن واحدة منهما قد استغرقت الثانية؛ فإن شاركتها الصغرى إلى حد فما عسى أن تشركها فيما بقي"<sup>2</sup>.

فهذه حقيقة الإعجاز عند الراجعي؛ "لا تكون المعجزة معجزة؛ حتى تعجز قدرة الناس كلهم عنها جيلاً بعد جيل، مع بقائها هكذا تتحدى قدرة الناس أبد الدهر"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 326.

<sup>2</sup> الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 98.

<sup>3</sup> الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 329.

## 2- الأقوال في الإعجاز:

خصَّ الرافعي رحمه الله هذه القضية بفصل؛ أرخ فيه للأقوال في الإعجاز من مبدأها؛ فبدأ بسبب الكلام في الإعجاز لم كان؟ وهو إنكار الإعجاز أصلاً، مروراً بالقول بالصرفة، والإعجاز البياني.

- إنكار الإعجاز أصلاً: وهو ما كان الداعي إلى التأليف في الإعجاز. قال الرافعي رحمه الله: "كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن، مقالة تُعزى إلى رجل يهودي يسمى لبيد بن الأعصم فكان يقول: إن التوراة مخلوقة، فالقرآن كذلك مخلوق، ثم أخذها عنه طالوت ابن أخته وأشاعها، فقال بها بنان بن سمعان الذي إليه تُنسب البنانية، وتلقاها عنه الجعد بن درهم (مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية) وكان زنديقاً فاحش الرأي واللسان، وهو أول من صرح بالإنكار على القرآن والرد عليه، وجحد أشياء مما فيه، وأضاف إلى القول بخلقه؛ أن فصاحته غير معجزة، وأن الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها، ولم يقل بذلك أحد قبله، ولا فشت المقالة بخلق القرآن إلا من بعده، إذ كان أول من تكلم بها في دمشق عاصمة الأمويين، وكان مروان (ويلقب بالحمار) يتبع رأيه، حتى نسب إليه، فقيل مروان الجعدي. ولم تظهر بعده فتنة القول بخلق القرآن إلا زمن أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم (سنة 220 هـ) وكان أول من بالغ في القول بذلك عيسى بن صبيح الملقب بالمزدار"<sup>1</sup>.

"وكان عيسى هذا تلميذاً لبشر بن المعتز - من أكبر شيوخ المعتزلة وأفراد بلغائهم - [...] وقد زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة، وعلى ذلك أصحابه.

وهو جنون بلا ريب، ليس أقبح منه إلا جنون الحسينية؛ أصحاب الحسين بن القاسم العناني، الذين يزعمون أن كتبهم وكلامهم؛ أبلغ وأهدى وأبين من القرآن. وذلك زعم يكثر أن يكون جهلاً وسخفاً من قوم شاهدين على أنفسهم بالكفر، وإنما هو بعض ما يزينه شيطان النفاق، (وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) [العنكبوت: 11]"<sup>2</sup>.

- القول بالصرفة: يؤرخ الرافعي رحمه الله لظروف ظهور القول بالصرفة فيقول: "ثم لما نجمت آراء المعتزلة، بعد أن أقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم؛ نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً، وبين الدين على كونه

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 100-101.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 105.

يقيناً محضاً، وتغلغلوا في ذلك، حتى خالف بعضهم بعضاً بمقدار ما يختلفون في الذكاء وبعد النظر، فتفرقوا عشر فرق، واختلفت بهذا آراؤهم في وجه إعجاز القرآن اختلافاً يقوم بعضه على بعض، فيبدأ فارغاً وينتهي كما بدأ، وإن كثر في ذات نفسه.

فذهب شيطان المتكلمين؛ أبو إسحاق إبراهيم النّظام، إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصّرف خارقاً للعادة.

قلنا: وكأنه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن. وهذا الذي يروون عنه أحد شطرين من رأيه، أما الشطر الآخر؛ فهو الإعجاز إنما كان من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية.

وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني؛ إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم. وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى. غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرف، بيد أنه شب في ناشئة الفتنة الكلامية، فلم ينتفع بيقين<sup>1</sup>.

- الإعجاز البياني: وقد بيّن الرافعي رحمه الله أن القائلين به مختلفون في وصفه؛ فرأى الجاحظ - على سبيل المثال -، "أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، وله في ذلك أقوال [...]"

وبعض الفرق، فإنهم يقولون: إن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه ومقاطعته وفواصله. أي: فكأنه بدع من ترتيب الكلام لا أكثر. وبعضهم يقول: إن وجه الإعجاز في سلامة ألفاظه مما يشين اللفظ؛ كالتعقيد والاستكراه ونحوهما، مما عرفه علماء البيان. وهو رأي سخيّف يدل على أن القائلين به لم يلبسوا صناعة المعاني.

وآخرون يقولون: بل ذلك في حُلُوّه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة. وجماعة يذهبون إلى أن الإعجاز مجتمع من بعض الوجوه التي ذكرناها كثرة أو قلة. وهذا الرأي حسن في ذاته، لا لأنه الصواب، ولكن لأنه يدل على أن كل وجه من تلك الوجوه ليس في نفسه الوجه المتقبّل.

أما الرأي المشهور في الإعجاز البياني، الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني؛ صاحب (دلائل الإعجاز) المتوفى سنة 471 هـ (وقيل 474 هـ)؛ فكثير من المتوسمين بالأدب، يظنون أنه أول من صنف فيه، ووضع

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 101.

من أجله كتابه المعروف، وذلك وهم، فإن أول من جَوَّد الكلام في هذا المذهب وصنف فيه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 306هـ، ثم أبو عيسى الرماني المتوفى سنة 382هـ، ثم عبد القاهر، وهذا الرأي كان هو السبب في وضع علم البيان<sup>1</sup>.

### 3- تاريخ التأليف في الإعجاز:

لم يُجَلِّ الرافعي رحمه الله كتابه من إشارة إلى تاريخ التأليف في الإعجاز، ومما قرره ابتداءً؛ سبب التأليف فيه، وهو أنَّ الناس كانوا مُجمِّعين على أن القرآن معجزٌ، وكانت فيهم بقايا سليقة لغوية يُدركون بها طرفاً من هذا الإعجاز، إلا أن هذه السليقة بدأت تفسد، ومقالة بعض المعتزلة في إنكار الإعجاز بدأت تنتشر، فكان ذلك داعي التأليف فيه. قال الرافعي رحمه الله: "كان الناس إجماعاً على القول بالإعجاز والمشايعة فيه، وكانت الكلمة لا تزال متخففة فيهم عن العرب، فهم على علم مذكور من أوليتهم وسلفهم الذين أعزهم القرآن الكريم، وعلى عيان حاضر من فصحاء البادية الذين يختلفون إليهم، ومن أهل العربية وطائفة الرواة، وهذا كله مما يتسند إليه الطبع، وإن كان طبع العامة الذين فسدت لغتهم، والتوت ألسنتهم. ومر الناس على ذلك إلى أوائل المائة الثالثة.

فلما فشت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة، وخيف أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد أو العادة، وعلى الحشوة من أهل الكلام الذين لا رسوخ لهم في اللغة، ولا سليقة لهم في الفصاحة، ولا عرق لهم في البيان؛ مسَّت الحاجة إلى بسط القول في فنون من فصاحته ونظمه ووجه تأليف الكلام فيه. فصنّف أدينا الجاحظ المتوفى سنة 255هـ كتابه (نظم القرآن) وهو فيما ارتقى إليه بحثنا أول كتاب أفراد لبعض القول في الإعجاز، أو فيما يهيب القول به [...]

بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف، إنما هو فيما نعلم كتاب (إعجاز القرآن) لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 306هـ، وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه (المعتضد)، وشرحاً آخر أصغر منه. ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي.

ثم وضع أبو عيسى الرماني المتوفى سنة 382هـ كتابه في الإعجاز، فرفع بذلك درجة ثالثة، وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة 403هـ؛ فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن) الذي أجمع المتأخرون من بعده

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 102-103.

على أنه باب في الإعجاز على حدة، والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كان يعاصره [...] .

ومن أَلَّفوا في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الإمام الخطابي المتوفى سنة 388هـ، وفخر الدين الرازي المتوفى سنة 606هـ، والأديب البليغ ابن أبي الإصبع المتوفى سنة 654هـ، والزملكاني المتوفى سنة 727هـ، وهي كتب بعضها من بعض<sup>1</sup>.

#### 4- رأي الرافعي رحمه الله في الإعجاز:

- الذي يرومُ تحصيل رأي الرافعي رحمه الله في الإعجاز؛ يصعبُ عليه ذلك جدًّا؛ لعلوِّ العبارة وتعقيد الأسلوب، حتَّى إنَّ القارئ لا يُدرك الفكرة أحياناً بعد طول عناءٍ. يقول الخطيب وفقه الله: "والذي نراه على الرافعي في إعجازه، أنه أراد أن يرتفع بالأسلوب إلى مستوى يليق بالموضوع الذي يعالجه، ويتسق معه، ويستقي من عيونه المتدفقة، حملة على ذلك أن يُدخِل على نفسه شعوراً بأنه لن ينال من القرآن شيئاً ذا بال؛ إلا إذا مد إليه يداً مُلَقَّفةً في أردية من الفصاحة والبلاغة، وقلما مملولاً من فصاحة البادية وبلاغتها، وكان لهذا التدبير أثره في الخروج عن الطبع، وفي استكراه كثيرٍ من الكلمات والأساليب على أن تأخذ مواضع غير مواضعها، ومن هنا كان ما يجده القارئ لكتاب الرافعي من استغلاقٍ في كثيرٍ من عبارته، وفي عُمُوضٍ في كثيرٍ من آرائه. ولو أن الرافعي جرى على طبيعته، وأخذ من خاطره ما ينضحُ به، دون أن يعتصر ذهنه اعتصاراً؛ لكان ذلك أجدى وأنفع، وأبلغ في بلوغ الغاية التي يُريدُ"<sup>2</sup>.

وهو ما دعا الدكتور محمد موسى الشريف، أن يقول - في الفصل الذي خصصه للرافعي من كتابه -: "إني أعملتُ الذهن فيما خرج به الرافعي من حقيقة الإعجاز؛ فلم أظفر بمراده كاملاً، ولم أخرج من كلامه الطويل بتعريفٍ محدّد للإعجاز"<sup>3</sup>.

ولعل سياقنا لعبارة الرافعي رحمه الله بنصّها؛ يُبيِّن لنا صدق هذا الحكم. فقد قال رحمه الله تحت عنوان (حقيقة الإعجاز): "أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل، وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه، في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة، واكتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان وآثاره، وما نتج

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 106-108.

<sup>2</sup> الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 327.

<sup>3</sup> محمد موسى الشريف، إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، ص 673.

لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد إليها، والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي، التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة، حتى يكون أصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه. نقول: إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا، أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين يُنفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة<sup>1</sup>.

وهذا الوصف؛ أقرب إلى قول القائلين أن الإعجاز شيء يُدرَك ولا يُستطاع التعبير عنه، أو أنه شيء لا يُستطاع تحديده؛ كالنوم والروح على سبيل المثال؛ فكلٌّ من الإعجاز والروح والنوم؛ فيها إعجازٌ من جهة وضعها، ولكن القرآن ينفرد عنها وعن غيرها بأن له مادة من الألفاظ التي يظهر فيها وجه الإعجاز<sup>2</sup>. - ولكن المتأمل في كلام الرافعي رحمه الله؛ سيجد أنه قال بأربعة أوجه من الإعجاز، هي - على سبيل الإجمال - : إعجازه من جهة تاريخه بين الكتب السماوية، وإعجازه من جهة آثاره الإنسانية، وإعجازه من جهة حقائقه، وإعجازه من جهة بيانه وبلاغته.

أمّا الثلاثة الأولى؛ فقد قال فيها: "فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه. وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء؛ فهي باقية ما بقيت"<sup>3</sup>. فإعجازه من جهة تاريخه بين الكتب السماوية؛ معناه كونه كتاباً محفوظاً من التحريف والتبديل، لا كغيره من الكتب التي نالها ما نالها منه.

وإعجازه من جهة آثاره الإنسانية؛ معناه أثره أولاً في العرب الذين نزل فيهم؛ فحول في عاداتهم وأثر في طباعهم حتى انقادت للإسلام وذلت له. ثم أثره في الناس أجمعين إلى يوم الدين، مؤمنهم وكافرهم. وهو على هذا، أسبه ما يكون بكلام الخطابي رحمه الله عن الإعجاز النفسي أو الإعجاز التأثيري. وإعجازه من جهة حقائقه؛ شاملٌ جميع الحقائق التي أخبر بها القرآن الكريم، كالحقائق العلمية والكونية، والحقائق الغيبية؛ التاريخية أو المستقبلية...<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 109.

<sup>2</sup> يُنظر: محمد موسى الشريف، إعجاز القرآن، ص 673.

<sup>3</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 109.

<sup>4</sup> يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 95.

وقد ذكر الرافعي رحمه الله أنّ هذه الثلاثة ليست مقصودةً له في هذا الكتاب، وإن كانت من أوجه إعجازه، وإنما مقصوده الإعجاز البياني. قال رحمه الله: "على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب، وإنما مذهبنا؛ بيان إعجازه في نفسه، من حيث هو كلام عربي؛ لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب، دون جهة التأويل والتفسير"<sup>1</sup>.

وعلى ذلك؛ فوجه الإعجاز الذي تبناه الرافعي رحمه الله، وأسهب في شرحه؛ إنما هو الإعجاز البياني؛ كسلفه من جماهير علماء الأمة. قال الخطيب وفقه الله: "وقد عاب الرافعي على الباقلاني وقوفه بالإعجاز القرآني عند حدّ الكلام - أي النظم -، والرافعي لم يخرج في مداره حول الإعجاز عن هذا الوجه الذي ذهب إليه الباقلاني، وإن كان الرافعي قد جمّل هذا الوجه، وألقى عليه بعض الألوان والأصباغ في براعة ولطف وحسن صناعة، فالرافعي لم يخرج في حديثه في إعجاز القرآن عن هذا الوجه الذي جرى عليه من سبقه من القائلين بالنظم هو سرّ الإعجاز فيه"<sup>2</sup>. وقد ذكر رحمه الله أنّ:

**- إعجاز القرآن إنما هو في نظمه وأسلوبه الفريد:** وقد نص عليه تحت عنوان (أسلوب القرآن). قال رحمه الله: "وهذا الأسلوب؛ فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم، وتركهم على ذلك يتلكؤون. ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائماً لا يتصل به الطمع، وصور لهم العجز غالباً لا تنال منه القدرة، فأحرز طبايعهم في ناحية من الضعف والاستكانة، حتى كأنها غير طبايعهم في تنلمها بعد انتضائها، وتراجعها بعد مضائها، وقد كانوا يتساجلون الكلام ويتقارضون الشعر ويتناقضون في أغراضه ومعانيه، حين لم يكن من الفرق عند فصحاءهم بين فن وفن من القول؛ إلا ما يكون من تفاوت المعاني، واختلاف الأغراض وسعة التصرف، وكان أسلوب الكلام قبيلاً واحداً وجنساً معروفاً، ليس إلا الحُرُّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلا اطراد النسق وتوثيق السرد وفصاحة العبارة وحسن اتئلافها [...]

فلما ورد عليهم أسلوب القرآن؛ رأوا ألفاظهم بأعيانها، متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص 109.

<sup>2</sup> الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 328.

في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته؛ ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه<sup>1</sup>.

وهذا الكلام أشبه ما يكون بـ(نقض العادة) عند الرماني، أو (بديع التأليف) عند الباقلاني رحم الله الجميع.

- معنى النظم عند الرافعي رحمه الله: النظم عند الرافعي رحمه الله ليس كما هو عند عبد القاهر الجرجاني؛ يتوقف على تعليق الكلم بعضها ببعض، بل النظم عنده يشمل ثلاثة أمور: فيكون في الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها، والجمل وكلماتها. قال رحمه الله: "والكلام بالطبع؛ يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن؛ يتناول هذه كلها، بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به، فليس لنا بد في صفته؛ من الكلام في ثلاثتها جميعاً"<sup>2</sup>.

"فأنت الآن تعلم أن سر الإعجاز هو في النظم، وأن لهذا النظم ما بعده، وقد علمت أن جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل"<sup>3</sup>. ثم عقد لكل واحدة من هذه الثلاث فصلاً، شارحاً وممثلاً. كما عقد فصلاً بعدها في بلاغة القرآن، وغرابة أوضاعه التركيبية، وكله كلاماً ينم عن أن الرافعي رحمه الله ممن يميلون إلى وجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وهي نتيجة منطقية لمقدمات نشأة الرجل وتكوينه العلمي.

<sup>1</sup> الرافعي، إعجاز القرآن، ص131.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص145.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص146.

## المحاضرة الحادية عشر:

**إعجاز القرآن عند محمد عبد الله دراز رحمه الله (ت: 1377هـ=1958م)  
من خلال كتابه (النبا العظيم)**

**المسألة الأولى: من هو محمد عبد الله دراز رحمه الله؟**

محمد بن عبد الله دراز العالم الأزهرى الفقيه، الأديب من هيئة كبار العلماء بالأزهر. وُلد في محافظة كفر الشيخ بمصر سنة 1312هـ=1894م. نشأ في بيت علم وصلاح؛ فوالده الشيخ عبد الله دراز، شيخ علماء دمياط، هو صاحب الشرح على الموافقات للشاطبي. حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة، وعُرف من صغره بالفطنة والذكاء والتفوق.

- تابع تعليمه بالمعاهد الدينية في الإسكندرية، حتى اختير بعد تخرجه للتدريس في الأزهر. ثم انتُدب مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى فرنسا للالتحاق بجامعة السوربون بباريس، فأمضى خارج مصر اثنتي عشرة سنة؛ من مارس 1937م إلى مارس 1948م؛ حاز خلالها على شهادة الليسانس من السوربون سنة 1940م. ثم استغرق ست سنين آخر (1941م-1947م) في تحضير رسالتي الدكتوراه باللغة الفرنسية، وهما (المدخل إلى القرآن) و(دستور الأخلاق في القرآن)، ونوقشت هذه الرسالة أمام لجنة من كبار المستشرقين، منهم: ماسينيون وليفي بروفنسال وغيرهما. ومُنح شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف العليا في أواخر 1947م.

- عُرف رحمه الله بحسن الخلق، والتأله والعبادة، والصلابة في الحق.

- تُوفي رحمه الله في باكستان أثناء حضوره المؤتمر الإسلامي في لاهور في جانفي 1958م=1377هـ.

- اشتغل الشيخ رحمه الله بعد مرجعه إلى مصر بالتدريس والتأليف، وقد خلف أكثر من اثني عشر كتاباً، زيادةً على رسالتي الدكتوراه الأنف ذكرهما، ومن هذه المؤلفات: الدين؛ دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام، ودراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، والنبأ العظيم<sup>1</sup>.

**المسألة الثانية: جهودُ الشيخ محمد دراز رحمه الله في الإعجاز من خلال كتاب (النبا العظيم)**

<sup>1</sup> يُنظر: الزركلي، الأعلام، ج6، ص246. و: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج2، ص239-256. و: رجب عبد المنصف، مقال بعنوان "من أعلام الفكر المعاصر؛ الدكتور محمد عبد الله دراز"، شبكة الألوكة.

- كتاب (النبأ العظيم؛ نظرات جديدة في القرآن الكريم) في أصله محاضرات، كان يلقيها الشيخ على طلبته في الأزهر، وهو ما صرح به هو نفسه في قوله: "لقد شهد طلاب الأمس بداية أمره، حين كان يملئ عليهم نجومًا متفرقة، في فترات متلاحقة أو غير متلاحقة، وكانوا كلما اجتمعت منه صفحات معدودة لا تزيد عن عقد وبعض عقد، استعجلوا طبعها، وجعلوا يستحثون همة المؤلف لوضع لاحقتها"<sup>1</sup>. ثم نقحها الشيخ من بعد وجمعها في هذا الكتاب.

- ويأتي كتاب النبأ العظيم تاريخياً بعد كتاب الرافي رحمه الله (إعجاز القرآن)<sup>2</sup>، ولعل هذا يشي باستفادته منه، خاصة فيما تعلق بالإعجاز الصوتي، كما سيأتي الإشارة إليه في موضعه.

- لم يتمحض كتاب (النبأ العظيم) في قضية الإعجاز القرآني؛ بل كلامه عن الإعجاز جاء ضمن بيانه لمصدر القرآن الكريم، وحتى نتصور مضمون الكتاب على وجهه نقول:

قسّم الشيخ رحمه الله الكتاب إلى بحثين: البحث الأول؛ في تحديد معنى القرآن، والبحث الآخر؛ في بيان مصدر القرآن. وقصده بتحديد معنى القرآن تعريفه اللغوي والاصطلاحي والفرق بينه وبين الأحاديث القدسية وما إلى ذلك<sup>3</sup>. وأما مصدرية القرآن؛ فقد جعل بيانها في أربع مراحل: المرحلة الأولى؛ في بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من نفس محمد ﷺ، والثانية؛ في بيان أن محمداً ﷺ لا بد أن يكون أخذ القرآن عن معلم، وهو الله ﷻ، والثالثة في ذكر حال النبي ﷺ حين تنزل الوحي، وأن ذلك ليس اضطراباً نفسياً ولا تنويماً مغناطيسياً كما يزعمه قوم من المستشرقين. ثم المرحلة الرابعة؛ وهي تطلب دليل مصدرية القرآن من القرآن نفسه لا من شيء خارج عنه، كما في المراحل الثلاث الأولى. وهذه المرحلة هي المقصودة بالبحث هنا، وقد استغرقت أغلب الكتاب<sup>4</sup>.

وسنحاول أن نلخص ثلاث مسائل مما تطرق إليه الشيخ رحمه الله مما تعلق بالإعجاز؛ وهي على سبيل الإجمال: أوجه الإعجاز التي ذكرها، والإعجاز اللغوي عند الشيخ رحمه الله، وخصائص الأسلوب القرآني.

## 1- أوجه الإعجاز التي ذكرها الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله:

<sup>1</sup> محمد دراز، النبأ العظيم، ص 35.

<sup>2</sup> الرافي رحمه الله توفي سنة 1937م، ومحمد دراز رحمه الله بدأ تأليف كتابه سنة 1933م. يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 102. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن الكريم، ص 103.

<sup>3</sup> يُنظر: الشريف، إعجاز القرآن بين السيوطي والعلماء، ص 690.

<sup>4</sup> في طبعة دار القلم، دمشق، استغرقت هذه المسألة من صفحة 106 إلى الصفحة 284، وهو ما يربو على ثلثي الكتاب.

جُملة القول في هذه القضية أن الشيخ دراز رحمه الله ذكر للقرآن الكريم ثلاثة أوجه للإعجاز: الإعجاز اللغوي، والإعجاز العلمي، والإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي. يقول الدكتور مصطفى مسلم رحمه الله: "من الذين تحدثوا عن الإعجاز: الدكتور محمد عبد الله الدراز في كتابه (النبأ العظيم) الذي ألفه سنة: 1933 م. وذكر فيه ثلاثة أوجه من الإعجاز: الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي"<sup>1</sup>.  
إلا أنه لما كان يرى أن الإعجاز اللغوي هو الذي وقع به التحدي؛ فإنه اقتصر عليه في هذا الكتاب، وركز على بيانه. يقول الشيخ رحمه الله في هذا: "ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيره به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة [...] ثم نسأله: هل يجد فيه إلقاء قوة شاذة تغلب كل مغالب، وتتضاءل دونها قوة كل عالم، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب.

فلنأخذ الآن - بعون الله وتوفيقه - في دراسة هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: أعني ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي.  
ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية؛ لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة سورة منه"<sup>2</sup>.

وتفصيل ذلك في المسألة التالية.

## 2- الإعجاز اللغوي عند الشيخ رحمه الله:

وقد جعله رحمه الله في قسمين؛ اصطلاح على تسميتهما ب: القشرة السطحية، واللب الداخلي. وكان يعني بالقشرة السطحية: النظام اللفظي الصوتي في القرآن الكريم، فيما عني باللب: النظام المعنوي، وبيان ذلك كالآتي:

### أ- القشرة السطحية (النظام اللفظي الصوتي في القرآن الكريم):

يقرر الشيخ في هذه المسألة، أن النظام الصوتي القرآني؛ أول ما بهر العرب بجماله، وأدركوا منه جمالين اثنين: جمال توقيعي، وجمال تنسيقي.

<sup>1</sup> مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 103-104.

<sup>2</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 108.

- أما الجمال التوقيعي؛ ففي توزيع حركاته وسكناته، ومداته وعُنَّاته. قال رحمه الله: "إن أول شيء أحسسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يحدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحتها العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيبه إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه - كما قال الوليد<sup>1</sup> - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده.

ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله وامتعت<sup>2</sup>.

- وأما الجمال التنسيقي؛ فقصده به رحمه الله: "رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة: فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورففها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا يُنْقَرُ وذاك يُصْفَرُ، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة؛ لا كركرة ولا ثثرة، ولا رخاوة ولا معازلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة

<sup>1</sup> كلمة الوليد بن المغيرة على تمامها: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يُشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول خلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مُعْدِقُ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلا، وإنه ليخطم ما تحته". البيهقي، دلائل النبوة، ج 2، ص 198.

<sup>2</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 134.

الحاضرة وسلاستها، وقدر فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلاستهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم<sup>1</sup>. ثم بيّن رحمه الله في ختام هذا الباب، الغرض من هذا الجمال الظاهر في القرآن الكريم، وهو الحفاظ على كنوز الباطن من الضياع والإهمال، وأن تكون مدعاةً للاهتمام والإقبال. قال رحمه الله: "ومن هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني. وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قوامًا لبقاء الإنسان فردًا وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صوائغًا يجلبها إلى الناس بعدوتته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحذاء) يستحث النفوس على السير إليها. ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كما لها. لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القلب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدًا في أفواه الناس وأذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بما حقيقة سره، وَيَنْفُذُونَ بِهَا إِلَى بَعِيدِ غُورِهِ (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9]"<sup>2</sup>.

### ب- اللَّبُّ (النظام المعنوي في القرآن الكريم):

وهذا القسم من قسيمي الإعجاز؛ هو الأجلُّ قدرًا، والأعظمُّ خطرًا؛ إذ الألفاظ إنما تُرادُ لِمَا وراءها من المعاني. يقول الشيخ دراز رحمه الله في تجلية هذه القضية: "فإذا أنت لم يلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون، بل فليت القشرة عن لبها، وكشفت الصدفة عن درها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع.

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعًا يجيء - إن شاء الله تعالى - في بحث (الإعجاز العلمي)، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن (الإعجاز اللغوي)، وإنما اللغة ألفاظ.

<sup>1</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 135.

<sup>2</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 135-136.

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتية؛ مادتها الحروف، وصورتها الحركات والسكنات، من غير نظر إلى دلالتها، وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً، وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني، ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدد؛ إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان؛ أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام<sup>1</sup>.

- عند الكلام عن النظام المعنوي للقرآن الكريم؛ اختار الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله أربع مراتب أو أربعة مستويات لتحليلها وهي: القرآن في قطعة قطعة منه، والقرآن في سورة سورة منه، والقرآن فيما بين السورة والسورة، والقرآن في جملته. "ولكننا لم ننعّم إلا بالمرتبين الأوليين: القرآن في قطعة قطعة، والقرآن في سورة سورة، وفاضت روحه إلى بارئها؛ رحمه الله رحمةً واسعة"<sup>2</sup>.

### أ. القرآن في قطعة قطعة منه:

ويقصد الشيخ رحمه الله الكلام عن نظام تأليف القرآن البياني في القطعة منه؛ حيث وحدة الموضوع؛ أي تقسيم السورة القرآنية إلى مقاطع، كل مقطع منها يؤدي معنى تاماً، وقد يكون سورة، وفي الأغلب بضع آيات من سورة<sup>3</sup>.

### ب. القرآن في سورة سورة منه:

ومراد الشيخ دراز رحمه الله بالكلام في هذا المستوى؛ الانتقال من الموضوع الواحد في المقطع القرآني، إلى المواضيع المختلفة التي تتسق في سورة واحدة. قال رحمه الله: "فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر إلى السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز"<sup>4</sup>.

### 3- خصائص الأسلوب القرآني:

في أثناء كلام الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله عن نظام القرآن المعنوي؛ تعرّض لقضية الخصائص المميزة للأسلوب القرآني، وقد ذكر منها ثمانية خصائص متقابلةً مثنى مثنى، وقد سماها بعض الباحثين (النهايات

<sup>1</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 141.

<sup>2</sup> فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 109.

<sup>3</sup> يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 40. و: محمد موسى الشريف، إعجاز القرآن بين السيوطي والعلماء، ص 695.

<sup>4</sup> دراز، النبأ العظيم، ص 177.

المتضادة) إذ يقول: "من الدلائل الإجمالية لإعجاز القرآن الكريم؛ تحقق الجمع الأسلوبى في السورة القرآنية بين النهايتين المتضادتين، ووجه الإعجاز ينجلي بوضوح، لو تمثلنا ذلك في صورة من يُطلب منه أن يخطو خطوة إلى جهة المشرق؛ على شرط أن تكون تلك الخطوة نفسها تدنيه من جهة الغرب، هذا خارج عن طوق البشر قطعاً.

وقد تنبه الدكتور دراز إلى هذا الوجه الإعجازي، فصاغ تلك النهايات المتضادة المتحققة في القرآن في صورة ثنائيات عددها أربع: 1/ القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، 2/ خطاب العامة وخطاب الخاصة، 3/ إقناع العقل وإمتاع العاطفة، 4/ البيان والإجمال. وقد فصل في هذه الثنائيات بما لا مزيد عليه<sup>1</sup>.

وتفصيل هذه الثنائيات الأربع فيما يأتي:

### 1. القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

نهایتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحدهما: فالذي يعمد إلى ادخار لفظه والاقتصاد فيه؛ لا بد أن يحيف على المعنى ولا يؤديه حقه. والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليل عناصره وإبراز دقائقه؛ فلا بد أن يطيل الكلام ويُطنب فيه. أمّا القرآن العظيم؛ فإنك حيث تأملته؛ تجده بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: (نقية) لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، (وافية) لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه<sup>2</sup>.

### 2. خطاب العامة وخطاب الخاصة:

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء؛ لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء؛ لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك -؛ أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى.

<sup>1</sup> أبو عبد المعز، وجّه من وجوه إعجاز القرآن العظيم، ملتقى أهل التفسير، تاريخ الإضافة: 2005/10/26.

<sup>2</sup> يُنظر: دراز، النبأ العظيم، ص 143-146. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 110.

أما أن تجد جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك؛ فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته؛ فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم<sup>1</sup>.

### 3. إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فأما إحداها فتتقب عن الحق لمعرفة، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا. فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟ وأما القرآن الكريم؛ فهو كلام الله رب العالمين؛ الذي لا يشغله شأن عن شأن. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين<sup>2</sup>.

### 4. البيان والإجمال:

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه. ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل. وإذا أجمالوها ذهبوا إلا الإبهام أو الإلباس. أو إلى اللغو الذي لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فنجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسها دون كد خاطر ولا استعادة حديث. كأنك لا تسمع كلامًا ولغات بل ترى صورًا وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به حُبْرًا ووقفت على معناه محدودًا. هذا، ولو رجعت إليه كرة أخرى؛ لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> يُنظر: دراز، النبأ العظيم، ص 147.

<sup>2</sup> يُنظر: دراز، النبأ العظيم، ص 149-150.

<sup>3</sup> يُنظر: دراز، النبأ العظيم، ص 151-152. وقد ضرب هنالك مثالاً على هذه الخصيصة بتفسير قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَزُرُّكَ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ) [البقرة: 312]، فلا يفوتك.

وقد بيّن الشيخ دراز رحمه الله أن هذه الأربعة قد اجتمعت في القرآن العظيم على وجه معجز لا يستطيعه عقول البشر ولا كلامهم<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> يُنظر: الشريف، إعجاز القرآن بين السيوطي والعلماء، ص 696.

## ثَبَّتْ مَصَادِرَ الْمَطْبُوعَةِ وَمَرَّاجِعَهَا

- 1) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ط1، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، 1418هـ.
- 2) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م.
- 3) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، دت.
- 4) ابن شاکر، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1974م.
- 5) ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ط1، الدر التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- 6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، لبنان، 1399هـ-1973م.
- 7) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت.
- 8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط2، دار طيبة، السعودية، 1420هـ-1999م.
- 9) أبو البقاء الكفوي، الكلبيات، تحقيق عدنان درويش وزميله، د، مؤسسة الرسالة، لبنان، دت.
- 10) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، 1404هـ-1983م.
- 11) الإمام أحمد، الرد على الجهمية والزنادقة، تحقيق صبري شاهين، ط1، دار الثبات، مصر، دت.
- 12) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط5، دار المعارف، مصر، 1997م.
- 13) الجاحظ، الحيوان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ.
- 14) الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، تحقيق عبد السلام هارون، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ-1964م.
- 15) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط3، مطبعة المدني، مكة، 1413هـ-1992م.
- 16) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.

- (17) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ-2002م.
- (18) الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ط1، دار الفكر العربي، مصر، 1974م.
- (19) الذهبي، سير أعلام النبلاء، التحقيق بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1405هـ-1985م.
- (20) الرازي، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، 1420هـ-1999م.
- (21) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425هـ-2005م.
- (22) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.
- (23) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، دت.
- (24) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1376هـ-1957م.
- (25) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1419هـ-1998م.
- (26) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
- (27) زهير ريبالات، مقال "الإعجاز القرآني في مسيرته التاريخية"، ملتقى أهل التفسير، تاريخ الإضافة: 1433/12/15هـ-2012/10/30م.
- (28) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394هـ-1974م.
- (29) السيوطي، طبقات المفسرين، تحقيق علي عمر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1396هـ.
- (30) الشنقيطي، دفع إيهاام الاضطراب عن آيات الكتاب، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1417هـ-1996م.
- (31) صالح العليوي، مقال "الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني"، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد15، سنة 1426هـ-2015م.

- (32) صبري المتولي، منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، دط، دار عالم الكتب، مصر، 1401هـ-1981م.
- (33) صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ط1، دار عمار، الأردن، 1421هـ-2000م.
- (34) عبد الله الجديع، العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، ط1، دار الصميعي، السعودية، 1416هـ-1995م.
- (35) العيد حديق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم - ابن القيم نموذجاً -، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، 2011-2012.
- (36) فاضل النعيمي، مقال "إعجاز القرآن في مرحلة البناء والتأسيس - ابن قتيبة"، موقع جامعة بابل، تاريخ الإضافة: 2018/06/10.
- (37) فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، دون معلومات نشر.
- (38) القاضي عياض، الشفا بتعريف بحقوق المصطفى، ط2، دار الفيحاء، عمان، 1407هـ.
- (39) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق سعيد أعراب، ط1، مطبعة فضالة، المغرب، 1981م.
- (40) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وزميله، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م.
- (41) القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ.
- (42) كمال الدين الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الأردن، 1405هـ-1985م.
- (43) محمد العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ط1، دار المنهاج، السعودية، 1427هـ.
- (44) محمد بن علي الصامل، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، ط2، دار كنوز اشبيليا، السعودية، 1426هـ-2005م.
- (45) محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط2، مكتبة وهبة، مصر، 1418هـ-1997م.
- (46) محمود شاكر، مداخل إعجاز القرآن، دط، دار المدني، جدة، دت.

- (47) مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ط1، دار ابن الجوزي، 1432هـ.
- (48) مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 1426هـ-2005م.
- (49) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، مصر، 1421هـ-2000م.
- (50) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ط1، دار عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ-1990م.
- (51) منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ط3، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986م.
- (52) نعيم الحمصي، فكرة الإعجاز من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ-1980م.
- (53) ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ-1993م.